الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية للجاليات الأجنبية في مصر

- **الأجانب الأوربيون** (إقامتهم في المدن المصرية – الفنادق والمسئولون عن إدارتها – موقف السلطات المصرية – علاقتهم بالسلطة والناس)
- **الأجانب غير الأوربيين** (المغول الوافدين – إقامتهم وحياتهم الاجتماعية وتأثيرهم في المجتمع المصري)
- **الأسرى الأجانب ودورهم الاجتماعي** (أماكن إقامتهم – حياتهم الاجتماعية وأثرهم)
- **الرقيق الأجنبي ودوره الاجتماعي**

obeikandl.com

الأجانب الأوربيون:

سبق وأن تعرفنا على الدوافع والأسباب التي جذبت الأجانب للقدوم إلى مصر والتواجد بها وهى دوافع متعددة ومتنوعة أهمها التجارة، حيث ارتبطت دولة المماليك بعلاقات تجارية مع كثير من الدول المحيطة بها، ودول أوربا، وحوض البحر المتوسط، ودول المنطقة العربية والهند والصين، فقد كانت مصر ملتقى الطرق التجارية والوسيط التجاري بين تجارة الهند وتجارة أوربا.

وبناء على ذلك كانت بمصر جاليات أجنبية كبيرة العدد وهذا ما أ كده لنا أحد الرحالة المغاربة الذي زار الإسكندرية في عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م حيث شاهد جاليات أجنبية كثيرة من مختلف الجنسيات في المدينة [٣٧٢]، كما أوردت كتب الرحالة الأجانب معلومات تفيد وجود عدد كبير من الأجانب في مدينتي الإسكندرية والقاهرة من جنسيات متعددة، وبأعداد متفاوتة مثل الأرمن والأحباش واللاتين واليونانيين والمسيحيين الوافدين من جورجيا وغيرهم[٣٧٣]. لإقامة الأجانب الأوربيين في القاهرة حيث لم يكن لهم فيها فندق أو كنيسة لاتينية حتى أن البيازنة حينما حاولوا الحصول على تصريح من السلطان صلاح الدين الأيوبي ببناء فندق لهم في القاهرة لم يجب عليهم بالرفض أو بالقبول [٣٧٤]، وهذا الوضع قد استمر في العصر المملوكي حيث كان السلاطين المماليك يحرمون على الأجانب شراء سلع الكارم القادمة من الهند من أسواق القاهرة ولذلك لم يكن هناك سبب لتواجدهم لفترة طويلة في القاهرة [٣٧٥].

([٣٧٢]) خالد بن عيسى بن احمد البلوى المغربي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق المعروف برحلة البلوى المغربي (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥٣ جغرافيا) ورقة ٥٤.

([373]) Frescobaldi , visit to the holy places (Jarusalem , 1948) , p. 47 ; Kammer , le regime et le staut des etrangers en Egypte (le Caire , 1929), Tome 15 , p. 17 ; Atiya (A.S) , The Latter Crusaders in the middle ages (London , 1938) , p. 193.

([٣٧٤]) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى (ترجمة أحمد رضا، عز الدين فودة ، الهيئة العامة، ١٩٩٤م)، ج٣، ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

([٣٧٥]) محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة التوابل في مصر في عصر المماليك (الهيئة العامة،١٩٩٩م)،ص٢٠٨

وبالتالي لم تكن القاهرة مدينة جذب بالنسبة للأوربيين بالإضافة إلى التعليمات الصارمة التي فرضتها السلطات الحاكمة عليهم حيث منعتهم من التجوال داخل البلاد والمدن المصرية بحريه فاقتصرت إقامتهم على الثغور مثل دمياط ورشيد والإسكندرية والبرلس، وإذا انتقلوا إلى القاهرة فلم يكن ذلك إلا للضرورة القصوى لعرض شكوى أمام السلطان المملوكي أو التماس العدالة أو لحل بعض المشكلات القائمة بين الأجانب والمصريين. لذا لم يوجد في القاهرة سوى عدد محدود نسبيا من الأوربيين ولم يكن هناك داعيا لبناء فندق لهم بها، ولكنهم أقاموا في أماكن معينه في القاهرة سواء كانوا تجار أو حجاج أو قناصل لأن إقامتهم كانت مؤقتة [٣٧٦]، ودليلنا على ذلك حينما أقام بعض الحجاج الأجانب في منزل كبير التراجمة لفترة محدودة [٣٧٧]، وذلك لحين الحصول على الأذن من السلطان بالسفر إلى الأراضي المقدسة في بيت المقدس، أما التجار الأجانب فكانوا يجدون في الإسكندرية والموانئ المصرية الأخرى المأوى المناسب لإقامتهم حيث وجدوا كل ما يلزم لإشباع حاجاتهم المادية والدينية ويعود الكثير منهم بعد بضعة أسابيع في السفن نفسها التي جاءت بهم ويطيل آخرون إقامتهم بها أما القاهرة فقد كانت بالنسبة لهم مجرد محطة عبور تمر بها بضائع الشرق والغرب في حين كانت الإسكندرية سوق المبادلات التجارية [٣٧٨].

وقد أوضحت سابقا أن السلطات المصرية قد حددت مدة إقامة الأجانب الأوربيين في الدولة وتتراوح ما بين أربعة أشهر إلى ستة أشهر وهى المدة الكافية لتحقيق أغراضهم التجارية والدينية والسياسية أما القنصل الأجنبي فقد كان مسموحا له بالإقامة لمدة عام و أحيانا تمتد المدة إلى ثلاثة أعوام فقط. وبهذا يمكن القول أن الأجانب الأوربيين قد تواجدوا في مصر بصورة مستمرة ولكن إقامتهم كانت إقامة مؤقتة.

([٣٧٦]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٩؛ أحمد دراج، المماليك والفرنج في القرن ٩ هـ / ١٥م (دار الفكر العربى، ١٩٦١م)، ص ٣٧.

([377])Frescobaldi , op. cit. p. 44 ; Doop , le Caire vu par les voyageurs occidendu moyen ages (le caire , 1951) , tome 23 , p. 149 ; Thenaud , le voyage d' autremer de Jean Thenaud (Paris , 1884) , p. 83.

([٣٧٨]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٧ – ٣٠٨.

ولكن هناك بعض التجار الأوربيين قد اصطحبوا معهم أسرهم للإقامة في مصر ومنهم من اعتنق الإسلام حيث ذكر أحد الرحالة الأجانب وهو الرحالة الفلورنسى فريسكو بالدى الذي زار الإسكندرية في سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م أنه تقابل مع كبير التراجمة وهو تاجر بندقي الأصل وفد إلى مصر واعتنق الإسلام وتزوج من ابنة أحد الفلورنسيين الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية وقد أعطاه هذا الرحالة خطابات من أصدقائه البنادقة ومن قنصل البنادقة في الإسكندرية[٣٧٩]، هذا ولم نتعرف على اسم هذا التاجر البندقي المسلم أو عن مدة إقامته في مصر أو عن حياته سواء من خلال المصادر العربية والأجنبية المعاصرة كما توصلنا إلى أن هذا التاجر كان حدثا فريدا من نوعه في ذلك العصر وهذا يفسر لنا أن إقامة الأجانب الأوربيين في مصر لم تكن إقامة دائمة بل كانت مؤقتة.

وعلى أية حال فقد أقام الأوربيون في مبانى خاصة بهم حتى يتسنى لهم إتمام أعمالهم على أكمل وجه وقد سمى هذا المبنى باسم الفندق، ويرجع وجود هذا النوع من المباني إلى بداية العصور الوسطى حيث انتشر في منطقة البحر المتوسط وذلك تسهيلا للتجار الوافدين والعمل على راحتهم أثناء وجودهم في الدولة وهذا يعنى أن الفندق في بدايته كان مخصصا للتجار فقط ثم أقام فيه جميع المسافرين فيما بعد فكان مقرا لإقامة الأجانب الغرباء عن الدولة من جميع الجنسيات والطوائف المختلفة ومسكنا مريحًا لهم تتوفر فيه الخدمات اللازمة للمسافرين[٣٨٠].

([379])Frescobaldi , op. cit. p 44 – 45 .

([٣٨٠]) The new encyclopedia bratin (London , 1974) , vol 8 , p. 1117.
وكان أول فندق انشئ في الأمبراطورية البيزنطية وأطلق عليه byzantime – mita ولم يكن مسموحا للتجار الأجانب أن يقضوا فيه أكثر من ثلاث أشهر وهى المدة التي حددتها الإمبراطورية لإنهاء الأعمال التجارية، انظر، Lopez – Ropert , medieval trade in the mediterranean world (London , 1955) p. 84 , 85 ؛ ويجدر بنا الإشارة إلى أن مصطلح الفندق أو Fundaco قد شاع في استعماله في القرن ١٤ م وهو لفظ مشتق من الكلمة اليونانية pandokeion أو اللاتينية xenodochim ومعناها المسكن أو المأوى الذي يقيم فيه الغرباء ويقابلها في الإيطالية كلمة fondaco، انظر، آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ (ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة، القاهرة، ١٩٤١م)، ج٢، ص ٢٣٧؛ عمر كمال توفيق، مجتمع

أما بالنسبة للفنادق في الدولة المملوكية فقد كثر عددها في المدن الساحلية وحمل كل فندق اسم الجالية التي تقيم فيه ولا تزاحمها فيه جالية أخرى فقد وجد في الإسكندرية فندقان للبنادقة منذ أيام الأيوبيين و حتى نهاية الدولة المملوكية فقد سمح لهم العادل أبو بكر الأيوبي في اتفاقية عام ٦٠٣هـ/١٢٠٧م بإقامة فندق ثان للبنادقة في الإسكندرية[٣٨١]، كما خصص فندقاً للجنوية وفندقاً لأهالي نابولي، وفندقاً لأهالي كريت، وفندقاً لأهالي برشلونة وفندقاً لأهالي مارسيليا، وأهالي أراجون وقطالونيا، وفندقاً للبيازنة وغيرهم من الجنسيات الأخرى[٣٨٢]، وقد أقام في هذه الفنادق جميع العناصر الأجنبية فعندما وصل الرحالة فليكس فابرى إلى الإسكندرية أقام هو وزملاؤه في فندق القطلان ثم في فندق الجنوية ثم غادروه إلى فندق البنادقة[٣٨٣]. كما كان الفندق الناربونى معدا لاستقبال الحجاج الذين دفعوا رسوماً محددة فرضها السلطان كرسوم دخول الفندق[٣٨٤]، ثم اعتاد الحجاج على الإقامة في فندق القطلان بعد إلغاء الفندق الناربونى[٣٨٥].

وفيما يختص بوصف الفندق فقد ترك لنا زوار مدينة الإسكندرية وصفا عاما للفنادق حيث كانت ذات تصميم معماري واحد تقريبا على مر العصور وهو مبنى مصري خالص على أرض مصرية ويخضع للسلطات المحلية وليس ملكا للجالية

الإسكندرية عبر العصور (الإسكندرية، ١٩٧٥م)، ص ٢٩٧؛ السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية المصرية (الإسكندرية،١٩٧٣م)،حاشية (١)، ص ٥٩٥.

(٣٨١)هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٤؛

Deeping , Histoire du commerce enter le levant et le Europe depuis des les croissades (paris ,1830) , tome. 2 , p.114 – 115 ; Kammer , op. cit. p. 19.

(٣٨٢) إبراهيم على طرخان، مصر في عصر الجراكسة (دار النهضة المصرية، ١٩٦٢م)، ص ٢٨٢؛ رشيدة بسرور،"العلاقات المملوكية بالجمهوريات الإيطالية "(كراسات تونسية،تونس،١٩٩١م)، ص ١٦٣؛

Thenaud , op.cit , p.22 ; Atiya , crusades , commerce and culture (blonigton , 1962) , p. 181.

(٣٨٣) Flex Fabri , le voyage en Egypte (London , 1897) p. 694.

(٣٨٤) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٥.

(٣٨٥) نفسه، ٣٠٦.

المقيمة به بل هو هبة من الدولة للأجانب. والفندق عبارة عن مبنى مربع الشكل كبير الحجم يشبه الحصن أو الصرح المرتفع ويتكون من عدة طوابق فالطابق الأول الأرضي به حوانيت ومخازن لبيع وشراء السلع التي يعرضها نزلاء الفندق، وقد خصص لكل تاجر مخزن يضع فيه بضائعه ويغلق عليها وفيه تعقد الصفقات التجارية، أما الطوابق الأخرى التي تعلوه فهي مخصصة لمبيت الأجانب وبها غرفة للنوم معدة لراحة النزلاء وتغلق أبوابها بأقفال رومية [٣٨٦]. وتطل هذه الغرف على فناء داخلي واسع وقد خصص لتفريغ البضائع وتصنيفها والاستعداد لعملية التخزين وفى الجزء الآخر من الفناء توجد حديقة زرعت بها أشجار غريبة مجلوبة من جهات بعيدة ومن أنواع متعددة من النباتات والزهور التي توجد في أوطان هؤلاء الأجانب لتذكرهم ببلادهم بالإضافة إلى بعض الحيوانات المستأنسة[٣٨٧].

ولما كانت هذه الفنادق قد أقيمت خصيصا لراحة العملاء الأجانب فلا يشعرون بالضيق أو الغربة حين الإقامة بها فقد أقيمت في كل فندق كنيسة صغيرة لأداء الطقوس الدينية[٣٨٨]. فضلا عن وجود بعض الكنائس الأخرى لبعض الجاليات الأجنبية مثل كنيسة القديس نيقولا الخاصة بأهالي بيزة، وكنيسة سانت ماريا للجنوية، وكنيسة سان ميشيل للبنادقة[٣٨٩]، وكانت كنيسة الجالية البندقية تعد أعظم الكنائس فإذا مات أحد اللاتين في مصر كان يدفن في مقبرة كنيسة سانت ميشيل التابعة للبنادقة[٣٩٠].

([٣٨٦]) آدم متز، المرجع السابق، ج٢، ص ٣٢٧؛ عطية القوصى، تجارة مصر في البحر الأحمر (دار النهضة المصرية، ١٩٧٦م)، ص ١٩٩.

([٣٨٧]) بنيامين التطيلى، رحلة بنيامين (ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م)، ص ١١؛ فايد حماد عاشور، العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى (دار المعارف، ١٩٨٠م)، ص ٢٥٢؛ شارل ديل، جمهورية البندقية (ترجمة أحمد عزت عبد الكريم و توفيق اسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م)، ص ١٤٢؛ Flex Fabri , op. cit. p. 694.

([٣٨٨]) صبحى لبيب، الفندق ظاهرة اقتصادية (ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، ١٩٨٦م) ص٢٩٢ ؛ نعيم زكى، طرق التجارة ومحطاتها الدولية (القاهرة، ١٩٧٣م)، ص ٢٩١.

([٣٨٩]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٦.

([٣٩٠]) نفسه، ٣٠٧.

كما سمحت السلطات المصرية بوجود مخبز في كل فندق لصنع الخبز وكذلك حمام، كما تساهلت معهم في دخول النبيذ إلى الفندق واحتسائه كما يشاءون واستعمال المكاييل والموازين كما اعتادوا في أوطانهم [٣٩١]. وفى أغلب الأحوال فقد أقيمت فنادق الجاليات الأوربية في أحياء متجاورة وكان معظمها يقع قريبًا من باب البحر[٣٩٢].

وقد شهد كل من رأى هذه الفنادق بالروعة والجمال وأنها أجمل مبان شيدت في الإسكندرية في ذلك العصر[٣٩٣]، وكان من جراء عناية الدولة بإنشاء هذه المباني أن تمتعت بعض هذه الفنادق بشهرة فائقة ومكانة مرموقة لدرجة أن بعض الجمهوريات الإيطالية قد أنشأت فنادق على بلادها على غرار الطراز المعماري المصري للتجار الألمان في أواخر العصور الوسطى [٣٩٤].

وليس أدل على عناية واهتمام السلطات المصرية بالأجانب الأوربيين وتوفير الراحة والأمان مما حدث في سنة ١٢٥٤م حينما اشتكى التجار البنادقة من وجود سوق للأسماك مجاورا لفندقهم فأمر السلطان بنقل هذه السوق بعيدًا عن فندق البنادقة [٣٩٥]. وكذلك ما حدث في سنة ١٢٦١م حيث اشتكى الأجانب بالإسكندرية من الحانات الموجودة بجوار فندقهم وما يحدثه السكارى من ضوضاء وشغب أمام الفنادق مما يؤثر على راحتهم ليلا؛ ولذا أمر الوالي بنقل هذه الحانات إلى مكان آخر[٣٩٦].

وقد اتبعت السلطات المملوكية نظامًا خاصًا بإدارة تلك الفنادق عامة فهي التي

([٣٩١]) سعيد عاشور، المجتمع المصرى عصر سلاطين المماليك (دار النهضة، ١٩٦٢م)، ص ٥٦؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية (دار النهضة، ١٩٥٨م)، ص ٦١٩؛
Thompson , Econmic and social history (New yourk , 1959) vol 1 , p. 402 ; Ziada , Foreign relations of Egypt (Liverpool , 1930) p. 212.

([٣٩٢]) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها (الإسكندرية، ١٩٦٦م)، ص ٥٠٦.

([393])Atiya , the crusade in the latter middle ages , p. 182.

([٣٩٤]) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ٢٩٢.

([٣٩٥]) عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب (دار النهضة العربية، ١٩٨٣م)، ص ٢٤٠.

([٣٩٦]) عادل زيتون، النشاط التجارى للمدن الإيطالية في البحر المتوسط (دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٧٨م)، ص ٢٩٥.

تملكها وحدها ولا سلطات لأي جالية عليها، وهذه الأنظمة التي وضعتها الأنظمة المحلية كانت إجراءات أمنية لحماية الأجانب والحفاظ على أرواحهم وأموالهم حيث تحكمت السلطات المحلية في إغلاق الفندق ليلا من الخارج منذ غروب الشمس حتى صباح اليوم التالي ويقوم بهذا العمل حارس مملوكي تعينه السلطات المحلية وذلك خوفا من عمليات السطو على الفندق ولحماية النزلاء في الليل[٣٩٧]. كما كانت تغلق الأبواب في وقت الصلاة من يوم الجمعة ولمدة ساعتين أو أكثر إلى حين الانتهاء من الصلاة كما منعت النزلاء من شرب الخمر خارج الفندق منعا للمصادمات مع المسلمين وعدم إيذاء مشاعرهم الدينية [٣٩٨].

وقد كان للسلطات المملوكية الحق في إعطاء الفندق للأجانب أو الرفض، ففي سنة ١٤٢٢م طالبت إحدى الجاليات الإيطالية وهى فلورنسا من السلطان المملوكي الإقامة في فندق البيازنة بالإسكندرية على اعتبار أن بيزة قد انضمت إلى فلورنسا؛ ولذا فمن حق الجالية الفلورنسية الحصول على فندق البيازنة ولكن السلطان لم يوافق على ذلك لأنه قد أعطاه للتركمان المسلمين ثم إن قاضى الإسكندرية قد أفتى بعدم شرعية منحه للأجانب بعد أن صار في أيدي المسلمين [٣٩٩].

ونخلص إلى أن الفندق كان المكان الوحيد المخصص لإقامة الأجانب الأوربيين في الديار المصرية وهو ملك خاص للدولة ولا يحق لأي جالية أجنبية امتلاكه أو إحداث تغيرات به إلا بعد موافقة السلطات المحلية، كما كان يعتبر مصرفا ماليا يودع

([٣٩٧]) شافع بن على، الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور (تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، بيروت، ١٩٩٨م)، ص ١٢٢؛ عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص ٢٩٨؛ شارل ديل، المرجع السابق، ص ١٤٢؛ جاستون فيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة (ترجمة مصطفى العبادى،مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠م)، ص ٤٠؛ Ziada , op. cit. p. 214.

([٣٩٨]) Frescobaldi , op. cit , p. 41. وهنا قد اخطأ فريسكو بالدى حيث ذكر أن صلاة المسلمين الأسبوعية يوم الاثنين وليست يوم الجمعة؛ هايد، المرجع السابق،ج٣، ص ٣٠٣، شارل ديل، نفسه، ص ١٤٢؛ إبراهيم حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك (دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م)،ص ٢٠٥.

([٣٩٩]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٤٩؛ رشيد باقة، العلاقات التجارية بين فلورنسا والمماليك (ماجستير غير منشور، آداب القاهرة، ١٩٨٩م)، ١٤٥ – ١٤٦؛ Thompson , op. cit. p. 275.

فيه التجار بضائعهم و أموالهم ومأوى مناسب وآمن لإقامة الأجانب بصفة مناسبة؛ ولذا فإنه يمكن القول بأن الفندق كان يمثل ذروة النشاط التجاري والقانوني والديني والسياسي معا.

ثمة ملاحظات هامة تتعلق بالفندق وهى مسالة الإشراف على الفندق ونزلائه وقد وضعت الدولة الأوربية نظاما محددا للإشراف على جالياتها في البلاد الإسلامية وخاصة بعد الازدهار الاقتصادي في الشرق والغرب ومع زيادة التعاملات الخارجية فكان لا بد من وجود هيئات أجنبية ومحلية تتولى مسألة الاتصال بين الجاليات الأجنبية والسلطات المحلية، وتقوم بالمحافظة على أموالهم وتحمى مصالحهم وتوفر لهم الأمان والاستقرار، وهذه الهيئات تتمثل في الآتي:-

١- القنصل الأجنبي:

تعينه الدولة الأجنبية في المدن الإسلامية بعد موافقة السلطان أو الحاكم المسلم، وتتمثل مهمته في الإشراف على رعايا دولته، وإدارة شئونهم، والمحافظة على تركات المتوفيين، وعن تسديد رسوم التجار في الجمرك، وعلى عمليات الشحن والتفريغ في الموانئ، ويشرف كذلك على شئون الفندق، وعلى صيانته وتوفير الراحة والأمان لأبناء جاليته، كما كان له الحق في اختيار من يقيم بالفندق، وفى حل المنازعات التي تنشب بين أفراد الجالية الواحدة وكذلك توصيل شكاوى أفراد جاليته للسلطان وهنا قد جمع القنصل بين التمثيل الدبلوماسي والسياسي والتجاري والقانوني في آن واحد[٤٠٠].

في حين كان محرمًا عليه العمل بالتجارة لحسابه الخاص أو لحساب غيره إلا بأذن من السلطان ويعفى من ضريبة الرأس وفى المقابل كانت الدولة المملوكية تدفع له راتبا ماليا يحصل عليه من الجمرك ويقدر بحوالي ٤.٥% من إجمالي البضائع

---

(٤٠٠) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٥٥، صبحى لبيب ، المرجع السابق، ص ٢٩٣؛ عطية القوصى، المرجع السابق، ص ٢٠٠؛ السيد الباز العرينى، مصر في عصر الأيوبيين (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص ٢٠٧.

التجارية الصادرة والواردة في ديوان الجمرك[٤٠١]. بالإضافة إلى مكافأة مالية أخرى بحوالي مائتي دوكة كل أربعة شهور[٤٠٢]، ولكن المقابل كان كثيراً حيث اعتاد السلاطين المماليك القبض على القنصل الأجنبي في الموانئ والثغور باعتباره هيئة لدى الدولة المملوكية وذلك عندما يتعرض المصريون أو أملاك الدولة لتصرف عدائي من جانب دول الغرب المسيحي عامة [٤٠٣].

وقد كان يتم اختياره من بين أحد الأسرات العريقة حيث يقوم حاكم دولته بذلك وقد خصص لكل جالية قنصل وارتبط عمله بديوان الخُمس ومراكز السلطة المحلية والإدارة المركزية بالقاهرة[٤٠٤]، وتتراوح مدة توليه هذا المنصب ما بين سنة إلى ثلاث سنوات وخاصة في حالة رضاء جاليته عنه ورغبتها في بقائه وبعد أن تنتهي مدته ترسل الدولة الأجنبية قنصلا جديدا بعد الحصول على موافقة من السلطان المملوكي[٤٠٥].

٣- مجلس مساعد القنصل :

يأتي بعده مجلس مكون من اثنى عشر تاجراً أجنبياً في الثغر وذلك لمساعدة القنصل في تأدية مهامه وهذا المجلس له دور في اختيار الشخص الذي يحل محل القنصل عند غيابه وكذلك حق اختيار مندوب تجارى مرسل إلى السلطان عند الضرورة [٤٠٦].

([٤٠١]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣١٨؛ حسين النحال، الحروب الصليبية المتأخرة (دكتوراه غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٩١م، ص ٢٤٣.

([٤٠٢]) محمد أمين صالح، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر في عصر المماليك الجراكسة (دكتوراه غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٦٩م)، ص ١٣٣؛ هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٣٠

Doop , le relation Egypt – catalonia (le caire , 1949) , p. 7 ; Ziada , op. cit. p. 214.

([٤٠٣]) انظر الفصل الثانى.

([٤٠٤]) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ٢٩٤؛ نعيم ذكى، المرجع السابق، ص ٣٢٤ – ٣٢٥؛

Thompson , op. cit , p. 403.

([٤٠٥]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٢٥؛ عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٢٩٢؛ إبراهيم حسن سعيد، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

([٤٠٦]) عفاف سيد صبرة، المرجع السابق، ص ٢٢٦؛ عادل زيتون، نفسه، ص٢٩٣؛ سامى سعد، أسس

٣- نائب القنصل:-

ينوب عن القنصل في حالة غيابه وله الحق في القيام ببعض مهامه ويرأس جماعة التجار الأجانب في الثغر[٤٠٧].

٤- الفندقي أو مدير الفندق:

ويطلق عليه لقب فندقاريوس Fundicarus وهو مسئول إداري ومالي في الفندق ويتولى تموينه بالسلع والخدمات اللازمة ونظافته وتوفير الراحة للنزلاء به وتقديم الطعام والشراب وتطوير الفندق وجعله أكثر جمالا وراحة [٤٠٨].

٥ – ثلاثة موظفين آخرين:

يسهرون على راحة وأمن النزلاء داخل الفندق ويتم اختيارهم بواسطة القنصل وهم معفون من ضريبة الرأس مثله ويأتون معه من دولته ويساعدونه في مهامه و أعماله[٤٠٩].

٦- موثق العقود والترجمان :-

يعاونان القنصل في أعماله بمرتب سنوي وقد كانا من السكان الوطنيين الذين يتقنون اللغات الأجنبية أو من الأجانب الذين يجيدون اللغة العربية [٤١٠]، وكانت مهمة الترجمان التوقيع على البضائع التي يتم التخليص عليها في الجمرك وتم دفع الضرائب المستحقة عنها إلى جانب عمليات الترجمة بين المسلمين والأجانب [٤١١]، وعلى هذا

العلاقات الاقتصادية بين الشرق والمدن الإيطالية (ماجستير غير منشور، آداب القاهرة، ١٩٥٨م)،ص١٠٧؛

Doop , l'Egypt au commcement du qinzieme siecle (le cair , 1950) , p. 98

(٤٠٧) عفاف سيد صبرة، نفسه ؛ صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ٢٩٣.

(٤٠٨) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٤؛ عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص ٢٩٩؛ رشيد باقة، المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٤٠٩) عفاف سيد صبرة، المرجع السابق، ص ٢٢٦، سامى سعد، المرجع السابق، ص ١٠٨؛ رشيد باقة، نفسه.

(٤١٠) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٢٤؛ إبراهيم حسن سعيد، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٤١١) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ٢٩٥؛ عفاف سيد صبرة، المرجع السابق، ص ١٥٥.

Obeikandl.com

فقد كانت فئة المترجمين تمثل حلقة الوصل بين الفندق وقنصله وتجاره من جانب والجهات المحلية المسئولة من جانب آخر؛ ولذا كان المترجم معتمدا من الحكومة المصرية وثقة عند جميع الأطراف المتعاملة معه.

ومما يؤكد ما ذهبت إليه ما جاء في إحدى الوثائق التي ترجع إلى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م من أن قنصل البنادقة بالإسكندرية سلم المترجم السلطاني ستة آلاف دينار ليسلمها بدوره للسلطان في القاهرة[٤١٢]، كما كان للمترجم دور هام في المعاملات بين الأجانب والوطنيين حيث اعتاد الرحالة والحجاج الأجانب الاعتماد على بعض المترجمين عند انتقالهم من مكان لآخر مقابل مبلغ من المال[٤١٣].

بالإضافة إلى ذلك كان هناك بعض الفئات المحلية الأخرى التي كان لها دور هام في انتظام عمل الفندق وفى تنظيم العلاقة بين الأجانب والمسلمين في كثير من المعاملات مثل السماسرة والمغربلين والكيالين والحمالين وفئة البريدية، فقد كان السماسرة يشكلون اتحاداً منظماً له وكلاؤه ويقومون بإرشاد التجار الأجانب إلى أحسن الطرق في البيع والشراء وأنسب الأماكن لتسوية البضائع ويحصلون على عمولة كبيرة في مقابل ذلك [٤١٤]، كما كان السمسار مسئولا عن الصفقة التي تمت على يده بمعنى أنه كان ملزما بالدفع في حالة عدم نفاذ العقد لانسحاب أحد الأطراف في العقد [٤١٥]، ومن الفئات الأخرى التي لا غنى عنها للأجانب والمسلمين تأتى فئة الحمالين والكيالين والمغربلين، وهى بلا شك فئات كان لها دور هام في انتظام عمل الفندق وفى التعامل مع نزلائه، وقد كان لاستخدام هؤلاء الأثر في أسعار السلع فعلى سبيل المثال كان الفلفل المغربل له سعر آخر غير الفلفل غير المغربل، كما كان التطفيف في الكيل

---

(٤١٢) صبحى لبيب، نفسه، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

(٤١٣) Frescobaldi , op cit , p.51 ; Thenaud , op. cit , p. 22 ; Von Harff , the pilgrimage of Arnold von harff (London , 1964) , p. 91 – 92 .

(٤١٤) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ٢٩٥؛ عفاف سيد صبرة، المرجع السابق، ١٥٤؛ هايد، المرجع السابق،ج٣، ص ٣٢٦.

(٤١٥) الطاهر أحمد مكى، " معاهدة تجارية بين مصر وأراجون " (المجلة، ١٩٦٠م)،ص ٥٨.

يقلل من ربح التاجر، ثم إن التعاقد مع الحمالين كان يضمن نقل السلع والأمتعة دون ضياع أو فساد [٤١٦].

وثمة فئة أخرى هامة لم تذكرها المعاهدات المصرية الأوربية وهى فئة البريدية فقد تم العثور على وثيقتين في دار الوثائق بالبندقية تؤكدان أهمية هذه الفئة في مجال الخدمات بين الفندق ونزلائه خاصة وبين الشرق والغرب عامة وذلك فيما يختص باتصالهم بعواصم وموانئ مصر والشام، ففي الوثيقة الأولى يتم الاتفاق بين البريدي سليمان بن على بن سليم وبين قنصل البندقية بالإسكندرية على أن يقوم الأول بتوصيل خطابات من الإسكندرية إلى عكا في عشرة أيام وعليه أن يحضر معه عند عودته الدليل على تسليم الخطابات وكان أجره في هذه الرحلة ذهابا وإيابا اثنتى عشرة دوكة يأخذ منها ست دوكات مقدما والباقي بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة[٤١٧].

أما الوثيقة الأخرى فكانت عبارة بين البريدي الحاج أحمد بن على بن مبارك وبين أحد أفراد جماعة البنادقة بالإسكندرية ونص على أن ينفذ البريدي طلب البندقى وهو القيام بتوصيل خطابات من الإسكندرية إلى دمشق والعودة خلال شهر واحد، وحدد العقد أجر البريدي باثنتى عشرة دوكة يتقاضى منها أربع دوكات مقدما والباقي عند عودته كما اشترط العقد على ضرورة احترام المدة المحددة لتسليم الخطابات في دمشق وإذا لم ينفذ البريدي هذا الشرط فلا يجوز مطالبته بباقي أجره من البندقى[٤١٨].

أما عن السفراء الأجانب الذين أتوا إلى مصر بصفة مستمرة لأداء مهام دبلوماسية معينة فقد كانت إقامتهم محددة الوقت ولذا خصصت لهم دور ومساكن للضيافة كل حسب مكانته وأهميته، فمنها قصور السلطان بالميدان، وهو الميدان السلطاني بأرض اللوق، ويلعب فيه السلطان لعبة الكرة، وقد بناه الصالح نجم الدين أيوب، والقصور التي به هي أعلى منازل الرسل[٤١٩]، وفي عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م

([٤١٦]) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ٢٩٥.

([٤١٧]) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

([٤١٨]) نفسه.

([٤١٩]) تقى الدين أحمد بن على المقريزى، الخطط المقريزية (نشر كلية الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م)، ج٣، ص ٣٢٢؛ شهاب الدين أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (دار الكتب

قدمت رسل بركة خان ورسل جنوة ورسل بيزنطة فأنزلهم الظاهر بيبرس في الميدان وصار يركب كل سبت وثلاثاء إلى القصر ليمارس لعبة الكرة[٤٢٠]، ويليها في الأهمية دار الضيافة التي بنيت في العصر الفاطمي وسميت بدار المظفر في حارة برجوان، وبعد وفاة صاحبها أصبحت دارا لإقامة السفراء حتى باعها المنصور قلاوون[٤٢١]، ويتولى الإشراف عليها ناظر دار الضيافة، وله الحق في صرف مرتبات العاملين بالدار والعناية بمن يصل إلى الأبواب الشريفة من الرسل والقصاد والعمل على راحتهم[٤٢٢]، ودليلنا على ذلك ما حدث عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م عندما حضر رسل صاحب دنقلة ومعه حاشيته ورجاله فأنزله الناصر محمد في دار الضيافة[٤٢٣]، ثم المارستان المؤيدي الذي بناه المؤيد شيخ تجاه القلعة لأجل المرضى واستغرق بناؤه ثلاث سنوات من عام ٨٢١هـ – ٨٢٣هـ ولما توفى المؤيد عام ٨٢٤هـ لم ينفق عليه أحد وتدهور حال المارستان فأخرجوا منه المرضى ثم سكنته طائفة من العجم ثم صار منزلا للرسل الوافدين حتى تحول في النهاية إلى مسجد[٤٢٤]، وفى بعض الأحيان كانت المتنزهات السلطانية تستخدم كمنازل للرسل مثلما حدث عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م عندما وصلت رسل الملك طقطاى ملك تتار القفجاق فأقاموا في مناظر الكبش[٤٢٥]، وكذلك

المصرية، ١٩١٨م)، ج٣، ص٣٧٤.

(٤٢٠) المقريزى، نفسه، ج٣، ص ١٩١؛ السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، ١٩٧٢م)، ج١ ق٢، ص ٤٩٥؛ محيى الدين بن عبد الظاهر الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق عبد العزيز خويطر،١٩٦٧م)، ص ٨١.

(٤٢١) المقريزى، الخطط، ج٢، ص٣٣٨.

(٤٢٢) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٣٣٨؛ محمد بن عيسى بن كنان، حدائق الياسمين في ذكر القوانين (تحقيق عباس الصباغ، بيروت، ١٩٩١م)،ص ١٧٦.

(٤٢٣) محمد بن إياس الحنفى، بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة، ١٩٧٢م)، ج١ق١، ص٤١٨.

(٤٢٤) المقريزى، الخطط، ج٤، ص ٢٦٣.

(٤٢٥) المقريزى، السلوك، ج٢ق١، ص ٧؛ أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر (تحقيق هانس روبرت، القاهرة، ١٩٦٠م)، ج٩، ص ٢٨٠؛ ومناظر الكبش تطل على بركة قارون وبها متنزهات بناها الصالح نجم الدين أيوب وأقام بها الرسل ثم أعاد بناءها الناصر محمد وزاد في مساحتها فأصبحت أروع وأجمل متنزهات مصر، انظر، المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٢١٦ –

قصور الأمراء كانت تعد أماكن لاستضافة السفراء الأجانب ففي عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م قدم سفراء ملك فرنسا إلى القاهرة وركبوا خيولا من بولاق إلى القلعة وأقاموا في بيت كاتب السر أبى بكر مزهو في بركة الرطلى و نزل بصحبتهم المهمندار وذكر هذا السفير أن المنزل يقع على ضفاف النيل وبه أبهاء جميلة مبنية بالرخام وجدرانه مزخرفة وبه حديقة رائعة الجمال[٤٢٦]، وثمة أماكن أخرى استخدمت لنفس الغرض وهى المنازل المؤجرة حيث يضطر السفير الأجنبي لأستئجار منزل للإقامة فيه مثلما فعل سفير فلورنسا حيث ذكر أنه نزل القاهرة وأقام بمنزل أحد المسيحيين ويدعى غزالة بعد دفع مبلغ كبير له مقابل إقامته في المنزل[٤٢٧].

وهكذا يتبين لنا أن الأجانب الأوربيين قد خضعوا لقواعد والتزامات معينة وتمتعوا بقدر من الحرية والأمان داخل الديار المصرية كما خصصت لهم الدولة أماكن معينة للسكن فيها ووفرت لهم الاستقرار والراحة في الإقامة والبيع والشراء وفى التجول والسفر بالإضافة إلى وجود هيئات وفئات أجنبية ومحلية عملت على خدمة الأجانب والوافدين وقدمت لهما الخدمات اللازمة طوال مدة إقامتهم في الفندق.

وعلى الرغم من إقامة الأجانب الأوربيين في مصر إقامة مؤقتة وعدم حدوث أي نوع من الارتباط أو الاندماج الاجتماعي بين الأجانب والوطنيين إلا انه حدث نوع من الاحتكاك المباشر بين الطرفين يمكن أن نطلق عليه مشاحنات وسرعان ما تتدخل السلطات المحلية لفض هذه الاشتباكات والمشاحنات.

ففي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م حدثت فتنة ومشاحنة عظيمة في مدينة الإسكندرية حيث تشاجر أحد أفراد الجاليات الأوربية مع تاجر مسلم فما كان من الأجنبي إلا أنه ضرب التاجر المسلم عند باب البحر[٤٢٨]، فثارت ثائرة الأجانب لمساندة صاحبهم كما

٢١٨؛ على باشا مبارك، الخطط التوفيقية (الهيئة العامة، ١٩٨٠م)، ج٢، ص ٣١٦ – ٣١٧.

(٤٢٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٥٥.

(٤٢٧) Ziada , op.cit , p 228 ; Doop , le caire vu par les voyageurs , p. 124.

(٤٢٨) عماد اليدن أبو الفدا إسماعيل الدمشقى المعروف بابن كثير، البداية والنهاية (بيروت، ١٩٨٢م) ج١٤، ص ١٢٧؛ شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد الذهبى، العبر في خبر من غبر (تحقيق أبى هاجر محمد و السعيد بسيونى، بيروت، ب.ت)، ج٤، ص ٧٩؛ زين الدين عمر بن الوردى، تاريخ

ثارت ثائرة المسلمين لمساندة صاحبهم المسلم مما أدى إلى نشوب قتال بين الطرفين فأمر والى الإسكندرية – وكان يدعى الكركى – بإغلاق باب البحر حتى حلول الليل فاضطر أكابر وأعيان المدينة للذهاب إلى الوالي وألحوا عليه في فتح الباب لأن متاجرهم بظاهر الباب مما يؤدى إلى فساد بضاعتهم وضياع أموالهم، فأمر الوالي بفتح الباب فتزاحم الناس عنده وتقاتل الأجانب والعامة، وجرح الكثير من الطرفين، أما الوالي فقد ساند الأجنبي رغم أن العامة قد تحاملوا عليه، وذهبوا به إلى القاضي لحل هذه المشكلة[٤٢٩]، ولما وجد المسلمون أن الوالي لم يحقق لهم العدل بالاقتصاص من الأجنبي ثاروا عليه، ورموه بالحجارة، وأحرقوا ثلاثة منازل لأعوانه، وحاولوا إخراج الأمراء المماليك المعتقلين من الحبس[٤٣٠]، ثم أرسل الوالي إلى السلطان بالقاهرة يخبره بما حدث عن طريق الحمام الزاجل؛ ولذا أرسل السلطان قواده إلى الإسكندرية وعلى رأسهم الأمير الوزير الجمالي الذي طلب القاضي للمثول أمامه، وكذلك نائبه و أهانهم، وأمر التجار المسلمين بدفع مبلغ خمسمائة ألف دينار، وأمر بعزل الوالي والقبض على من أحدث الشغب [٤٣١].

وثمة حادثة أخرى وقعت في سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م عندما حدث خلاف بين شخص أجنبي وشخص مسلم على مال فأتى به إلى والى القاهرة – وكان يدعى الأمير بركة – ولكن لم يثبت شيء على المسلم فغضب الأجنبي وأخرج سكينا وضرب به بلبان الترجمان في وجود الوالي مما أدى إلى وفاته فأمر الوالي بالقبض على الأجنبي وقطع يده ورجليه ثم إحراقه خارج القاهرة [٤٣٢].

بن الوردى، (القاهرة، ١٩٣٩م)، ج٢، ص ٢٨١.

([٤٢٩]) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤، ص ١٢٧؛ الذهبى، دول الإسلام (تحقيق حسن إسماعيل مروة، محمود الأرناؤوط، بيروت، ١٩٩٩م)، ج٢، ٢٦٩ – ٢٧٠؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب، ١٩٤١م)، ج٢، ق١، ص ٢٨٤.

([٤٣٠]) المقريزى، نفسه؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (طبع الأزهر الشريف، ١٩٢٨م) ج١، ص ١٣.

([٤٣١]) المقريزى، السلوك، ج٢ ق١، ص ٢٨٥؛ ابن بطوطة، المصدر السابق، ج١، ص ١٣؛ ابن الوردى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨٢.

([٤٣٢]) المقريزى، نفسه، ج٣ ق١، ص ٣٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة، ١٩٨٢م)، ج١ ق٢، ص ٢٥٥؛ الحافظ ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر

أما في سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م فقد تجمع العامة بالإسكندرية وحملوا السلاح والأحجار وكسروا للأجانب ثلاثمائة إناء خمر قيمتها أربعة آلاف دينار ثم اتجهوا إلى مخازنهم وأراقوا ما فيها من خمور واستمروا في أعمال السلب والنهب ولم يدر أحد سببا لتلك الفتنة التي حدثت[٤٣٣].

وفى شعبان من نفس العام سرق الأجانب البنادقة رأس القديس مرقص من الإسكندرية وهو أحد من كتبوا الأناجيل الأربعة ومؤسس كنيسة الإسكندرية فغضب النصارى اليعاقبة واعتبروه وهنا في دينهم لأنه قد جرت العادة عندهم أن من يتولى البطريركية لا بد وأن يضع في حجرته هذه الرأس؛ ولذا طلبوا من السلطان المؤيد شيخ إعادتها[٤٣٤]، ولكن لم ترد في المصادر المعاصرة أية إشارة إلى استجابة السلطان لهم ولكنهم قد أعادوها في أواخر القرن العشرين.

وفى سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م وقع خلاف بين أحد الأمراء المقدمين ويدعى ماماي الدوادارى وبين أحد التجار الأروام حيث ضرب التاجر الرومي وسال دمه فاشتكى إلى السلطان قنصوة الغوري فأمر بالقبض على هذا الأمير ولكنه هرب ثم قبض عليه مرة أخرى وضربه ضربا مبرحا ثم نفاه إلى الواحات عقابا له [٤٣٥].

ولا ننسى أيضا أن هناك بعض الأجانب الأوربيين الذين اتصلوا بالسلاطين المماليك وتوطدت بينهم صلات الصداقة والمحبة، وقاموا ببعض المهام الخاصة للسلطان مثل: التاجر الجنوى سكران الذي بلغ من الثراء والقوة الاقتصادية ما لم يبلغه كثير من التجار الأوربيين في ذلك الوقت، مما أدى إلى اتصاله بالسلطان المملوكي وحقق نجاحا ملحوظا في علاقته به ولذا اعتمد عليه الناصر محمد بن قلاوون في تنفيذ مهمة جليلة، ففي سنة ٧١١هـ/١٣١١م أسر فرنج جزيرة المصطكى رسل السلطان

بأنباء العمر (بيروت، ١٩٨٦م) ج٢، ص ٦.

(٤٣٣) المقريزى، نفسه، ج٤ ق١، ص ٥٠٣؛ ابن حجر إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٥٦.

(٤٣٤) المقريزى، نفسه، ص ٥٠٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٩؛ الخطيب الجوهر على بن داود الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (تحقيق حسين حبشى، دار الكتب المصرية، ١٩٧٤م)، ج٢، ص ٤٥٧.

(٤٣٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٩٨.

وباعوهم فطلب منه السلطان أن يعيد هؤلاء الأسرى المسلمين وبالفعل استطاع تنفيذ المهمة بنجاح[٤٣٦]، أما التاجر بيلوتي الكريتي فهو تاجر بندقي الأصل ولد في جزيرة كريت التي كانت تابعة لجمهورية البندقية وتخضع لسيادتها، ولما بلغ سن الخامسة والعشرين اشترك في قافلة تجارية ذاهبة إلى الإسكندرية واستمر يعمل كتاجر متجول في موانئ الشرق والغرب لمدة خمسة وثلاثين عاما[٤٣٧]، وقد لعب هذا التاجر دورا سياسيا هاما في الدولة المملوكية حيث يرجع إليه الفضل في عودة الأسرى المسلمين الذين أسرهم القراصنة في سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م في مياه أضاليا – أيام حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق - وباعوهم في جزيرة ناكسوس التابعة للبندقية وعندما طلب السلطان من القنصل البندقى بالإسكندرية التدخل لاستعادة هؤلاء الأسرى رفض ذلك بحجة أن الجزيرة ليست تابعة للبندقية؛ ولذا فقد تعرض التجار البنادقة في الإسكندرية كالعادة للمصادرة والطرد فاجتمعوا ودفعوا مبلغا ضخما قدر بحوالي ألف بيزنطي وتولى التاجر بيلوتي الكريتي مهمة افتداء الأسرى المسلمين وعودتهم سالمين إلى القاهرة[٤٣٨].

حقيقة كان هذا العمل التطوعي بداية نجاحه الحقيقي مما سمح له بالتجول في القاهرة والإسكندرية، ثم اعتمد عليه الناصر فرج بن برقوق مرة أخرى في عقد الصلح بين مصر وجنوة بعد تأزم العلاقات بينهما، ونتيجة لهذه الثقة استمر بيلوتي الكريتي في التنقل ما بين القاهرة وكريت والبندقية، وظل يتمتع بالصفة السياسية والتجارية حتى نهاية عصر السلطان برسباى[٤٣٩].

ويقال أيضا إنه كان له دور في عمليات القرصنة التي قام بها القراصنة

([٤٣٦]) محمد بن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧تاريخ)، ورقة ٤٨٤؛ المفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد (تحقيق blochet ، باريس ١٩١٩م) ج٣، ص ٧٠٤ – ٧٠٥.

([437])Atiya , the latter crusades , p. 208 ; Doop , le relation Egypte – Catalonia , p. 2.

([٤٣٨]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٣٠؛ – Doop , l' Egypte au commencement , p. 85 – 89 ; Hill. G , History of Cyprus, (Cambridge , 1972) , vol2. p 453 – 455.

([٤٣٩]) حسين النحال، الحروب الصليبية المتأخرة، ص ١٢٢.

الأجانب على الشواطئ المصرية والشامية بمساندة البابوية وذلك لأنه قد ألف كتابا عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الدولة المملوكية في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي و أهداه للبابا كمحاولة منه لتحريض البابا والغرب المسيحي لشن هجوم على مصر[٤٤٠]. وكذلك التاجر الفرنسي جاك كير[٤٤١]، الذي كان على صلة مباشرة بالسلطان جقمق واستطاع أن يعقد صلحا بين السلطان وبين ملك رودس بعد هجوم القوات المملوكية على جزيرة رودس في سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م[٤٤٢].

أما بالنسبة للجالية الرومية (اليونانيين) فقد كانت لهم علاقات قديمة وعريقة بالمصريين، وكانت هناك طائفة كبيرة من الروم الأرثوذكس في مصر عاشت في حارة عند باب زويلة واستقروا بها منذ العصر الفاطمي وعرفت الحارة باسم حارة الروم، ثم أقاموا في حارة أخرى سميت بحارة الروم الجوانية، ثم أطلق عليهما العامة حارة الروم العليا وحارة الروم السفلى[٤٤٣]، كذلك وجد في حارة الروم الجوانية دير للراهبات وكنيسة المغيثة – يقصد بها السيدة العذراء – وكنيسة بربارة والتي هدمت في وقائع هدم الكنائس في أيام الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢١هـ/١٣٢١م[٤٤٤].

---

(٤٤٠) أحمد دراج المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٤٤١) وهو من أسرة عريقة في فرنسا ذات أصول تجارية عقد اتفاقية تجارية مع مصر لصالح فرنسا وتولى مناصب مرموقة ولكنه اتهم بقتل زوجة ملك فرنسا وسجن ثم هرب إلى صديقه البابا في روما وتوفى عام ١٤٥٦م؛ مزيد من التفاصيل انظر، عزيز سوريال، الحروب الصليبية (ترجمة فيليب صابر، القاهرة ١٩٩٠م)، ص ١٩٠؛ Ziada , op.cit. p. 239 – 241.

(٤٤٢) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية للاستيلاء على رودس (مجلة الجيش، ترجمة جمال الدين الشيال، ١٩٤٦م)، ص٢٠٢؛ السيد عبد العزيز سالم و أحمد العبادى،تاريخ البحرية المصرية،ص٦٠٦.

(٤٤٣) المقريزى، الخطط المقريزية، ج٣، ص ١٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٣، ص ٣٥٩؛ عبد الرحمن زكى، القاهرة تاريخها وآثارها (القاهرة، ١٩٦٦م)، ص ٤١.

(٤٤٤) المقريزى، نفسه، ج٤، ص ٤٢١ – ٤٢٤، وسبب هدمها أن النصارى قد عمروها بإذن من السلطان مما أغضب المسلمين وسألوه هدم جزء من الكنيسة قد بناه النصارى وأمر الوالى بهدمها ثم جددها النصارى الأروام فيما بعد.

الأجانب غير الأوربيين:

توافدت أعداد كبيرة من المغول الأحرار المستأمنين إلى مصر وهم راغبون في الحصول على قدر من الأمن والاستقرار والحماية خوفا من حكم خان ظالم أو هربا من الحروب والمعارك التي نشبت بين ملوك التتار كما كان للظروف البيئية القاسية التي شهدتها البلاد المغولية الأثر الواضح في وفود أعداد ضخمة منهم إلى مصر خاصة أو إلى المشرق الإسلامي عامة،بالإضافة إلى أن مصر كانت مصدر جذب لكثير من المغول وخاصة بعد سقوط بغداد وانتقال مركز الحضارة والخلافة إلى القاهرة، والتصدي للعدوان المغولي على الديار الإسلامية، فمنذ ذلك الوقت أصبحت دولة المماليك أكبر دولة في الشرق الأوسط حامية للعالم الإسلامي بالإضافة إلى رغبة السلاطين المماليك في استغلال الخلافات التي نشبت بين مغول فارس ومغول القفجان والتغرب والترحيب بالمغول الوافدين إلى القاهرة، مما ساعد على ازدياد أعدادهم في الدولة المملوكية [٤٤٥].

وكانت بداية قدومهم إلى مصر في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م حيث كانت هناك طائفة مغولية تحارب مع هولاكو فعندما حدث خلاف بين هولاكو وبركة خان طلب الأخير من قواته الرجوع إلى المملكة أو الذهاب إلى مصر فقد كانت الرسل تتردد بين بركة خان والظاهر بيبرس الذي أرسل كشافة لمعرفة أخبار هولاكو فوجدت طائفة من التتار المستأمنين عزموا على قصد مصر فأمر الظاهر بيبرس بإكرامهم والإحسان إليهم وتجهيزهم بالخلع والإنعامات ثم وصلوا إلى القاهرة وأنزلهم السلطان في دور أقيمت لهم في أرض اللوق [٤٤٦]، وحمل إليهم الخلع والهدايا والخيول والأموال[٤٤٧]،

([٤٤٥]) انظر الفصل الأول.

([٤٤٦]) ومعناها الأرض اللينة فإذا انحسر عنها ماء النيل لا تحتاج إلى الحرث ولذا فهى أرض زراعية لينة يزرع بها البساتين والمحاصيل ولم يوجد بها بناء إلا في عام ٦٦٠هـ، انظر، سعاد ماهر، القاهرة وأحياؤها القديمة (القاهرة، ١٩٦٧م)، ص ٦٠.

([٤٤٧]) المقريزى، الخطط، ج٣، ص ١٩٠ – ١٩١؛ محيى الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٩٢م)، ص ٣٥؛ ابن كثير، البداية

ولما سمع إخوانهم بما فعله السلطان توافدت جماعات أخرى وهو يقابلهم بالإحسان والكرم فتكاثروا في الديار المصرية وعاشوا في مساكن عمرت لهم في أرض اللوق وبذلك اتسع المكان واستمر فيه البناء والتعمير من أجل المغول الوافدين[٤٤٨].

بالإضافة إلى حارة أخرى وهى حارة الحسينية وقد اختلفت الآراء حول تسمية هذه الحارة بهذا الاسم[٤٤٩]. وعلى أية حال فقد انقسمت هذه الحارة إلى جزأين الأول ما خرج عن باب الفتوح وكانت مساكن للجند الفاطميين، والثاني لم يكن به سوى مصلى العيد تجاه باب النصر ثم بنى بها مقابر لأهل الحسينية والقاهرة[٤٥٠].

ولم يعمر هذا الجزء إلا في عهد الدولة المملوكية ولا سيما في عهد السلطان العادل زين الدين كتبغا حينما قدمت طائفة من المغول الأويراتية المستأمنة في سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م ومعهم ماشية كثيرة وبضائع ودخلوا القاهرة فأكرمهم السلطان ورتب لهم الإقامات وكانوا من الكثرة حيث أنهم غمروا حارة الحسينية وعمروها وأنشئوا بها الأسواق والمساكن وصار أهلها يوصفون بالحسن والجمال الرائع[٤٥١].

ولا شك أن هؤلاء المغول الوافدين المستأمنين قد اعتنقوا الإسلام وعاشوا في الديار المصرية بحرية وأمان وتزاوجوا وتكاثروا وتلاشى ذكر اسم الأويراتية أو الوافدية فيما بعد في المصادر المملوكية المعاصرة هذا بخلاف إنهم لم يعملوا في التجارة أو الصناعة أو القيام بالأعمال الحرفية بل انخرط معظمهم في الجيش

والنهاية، ج١٣، ص ٢٣٤.

([٤٤٨]) جمال محمد بن سالم بن واصل، تاريخ الواصلين (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣١٩ تاريخ)، ورقة ١٢٩٦؛ شهاب الدين أحمد النويرى، نهاية الإرب في فنون الأدب (تحقيق محمد عبد الهادى، الهيئة العامة، ١٩٩٠م) ، ج٢٩، ص ٨٩؛ أيمن فؤاد السيد، التطور العمرانى لمدينة القاهرة (الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م)، ص ٣٥.

([٤٤٩]) المقريزى، الخطط، ج٣، ص ٣٢ – ٣٣؛ أبو الحسن نور الدين السخاوى، تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات (تحقيق محمود ربيع، حسن قاسم، القاهرة، ١٩٣٧م)، ص ١٤.

([٤٥٠]) المقريزى، الخطط، ج٣، ص ٣٤.

([٤٥١]) نفسه، ج٣، ص ٣٤ – ٣٥؛ أيمن فؤاد السيد، المرجع السابق، ص ٣٥؛ جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م)، ج٢، ص ١٩٧؛

David Ayalon , studies on the mamulks of Egypt (London , 1977) , p. 90.

المملوكي وعملوا مع الطبقة الحاكمة نتيجة لرغبة المماليك في الاستفادة من خبراتهم في المجال الحربي أو لبعدهم عن المجتمع المصري في اللغة والدين ولذا فإنهم قد شغلوا مناصب سياسية وعسكرية في الدولة وجلبوا معهم عاداتهم وتقاليدهم.

ونتيجة لاقتراب الجنس المملوكي من الجنس المغولي فقد رحب السلاطين المماليك بالتتار في سلك الجندية ومنحوهم الإقطاعيات والأموال والخلع والهدايا [٤٥٢]، مثل منصب أمير طبلخاناة، ومنهم من كان في جملة الخاصكية أو في رتبة السلحدارية أو الجمدارية والسقاه، أما الأكابر منهم فقد أصبحوا أمراء مائة أو دون ذلك، ومنهم من نزل في جملة البحرية وصار لكل منهم الأموال والأجناد والغلمان مثل الأمراء كرمون أغا وولده، و سيف كراى وولده، وشمس الدين أقسنقر، وسيف الدين ألطنبغاوى، ونوكا وغيرهم وذلك ليؤلف قلوبهم على الإسلام [٤٥٣]، وكذلك الحال مع المغول الأويراتية حيث رحب بهم العادل زين الدين كتبغا ليقوى نفسه ضد منافسيه فأنعم على طرغاى مقدمهم بإمرة طبلخاناه وعلى اللوص بأمره عشرة وأعطى الباقي للأمراء ومنحهم الإقطاعيات والرواتب ولكنهم كانوا سببا في عزله[٤٥٤]. لأنهم ظلوا على عاداتهم الوثنية ولم يعرفوا أوضاع الأدب، فعندما دخل رمضان لم يصم منهم أحد وصاروا يجلسون بباب القلة في مراتب الأمراء الكبار، مما سبب استياء العامة والأمراء المماليك بالإضافة إلى تقرب السلطان العادل إليهم ولم يعرض عليهم الإسلام

---

(١) المقريزى،السلوك، ج١ق٢، ص٤٧٣، ٥٠٠؛ بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية في الدولة التركية (تحقيق عبد الحميد صالح حمدان،الدار المصرية اللبنانية،١٩٨٧م)،ص٤٦.

([٤٥٣]) المقريزى، نفسه، ج١ ق٢، ص ٥٠١؛ بيبرس المنصورى ، مختار الأخبار (تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣م)، ص ٢٤؛ بدر الدين العينى، عقد الجمان في تواريخ الزمان (تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٧م)، ج١، ص ٣٦٤؛ أبو محمد عبد الله اليافعى اليمنى، مرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدر أباد، ١٣٣٨هـ)، ج٤، ص ١٥٩.

([٤٥٤]) النويرى، نهاية الإرب، ج٣١، ص ٢٩٨؛ مؤلف مجهول، تاريخ سلاطين المماليك (تحقيق زترستين، ليدن، ١٩١٩م)، ص ٣٧؛ الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر(القاهرة، ١٣٢٥هـ)، ج٤، ص ٣٤؛ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تاريخ الدول والملوك (تحقيق قسطنطين رزيق، نجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م) ج٨،ص ١٩٢

كما فعل الظاهر بيبرس، وسمح لهم بإقامة عاداتهم الوثنية فتآمر عليه الأمراء وعزلوه، وتم القبض على طرغاى وعلى أكابرهم وسجنهم في الإسكندرية، ثم قتل بعضهم وفرق جميع الأويراتية الباقين على الأمراء فاستخدموهم في أعمال متعددة، وأرسل بعضهم إلى بلاد الشام وبعضهم عاش في الحسينية[٤٥٥]، وهذا الوفد من الأويراتية كان أكبر عددا من الوفود السابقة، كما كان لهم تأثير سيئ على السلطة المملوكية وإحداث نوع من عدم الاستقرار حيث حاولوا عدة مرات القيام بانقلاب في أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية إلا إنه قد تم القبض عليهم جميعا وقتلهم[٤٥٦].

وثمة ملاحظة هامة ألا وهى: أن هؤلاء المغول الوافدين رغم توليهم مناصب عسكرية وانخراطهم في سلك الجندية إلا أنهم لم يتولوا مناصب عليا في البلاط المملوكي مثل المماليك المشتروات، فقد كانت الفرص بالنسبة لهم محدودة للغاية، وقد كانت أعلى وظيفة تولوها هي وظيفة أمير طبلخاناة وهى إمرة عشرة أو أربعين، وبالنظر إلى بقية الأمراء المماليك فإنهم لم يكونوا على نفس المستوى؛ ورغم انخراطهم في الجندية وفى مستوى أرقى من الأعراب والتركمان والأكراد إلا أنهم كانوا أقل مكانة من المماليك السلطانية[٤٥٧]، وليس أدل على ذلك مما حدث عندما نشب نزاع بين أحد أمراء السلطان وأحد الأمراء الوافدين فنجد الأول يسخر من الثاني بقوله: "أنت واحد منفى وافدي وليس باستطاعتك أن تجعل نفسك مثل المماليك السلطانية"[٤٥٨].

ومن المرجح أن هؤلاء الوافدين الجدد قد جاءوا بعاداتهم وتقاليدهم إلى الدولة

([٤٥٥]) المقريزى، الخطط، ج٣، ص ٣٥؛ بيبرس المنصورى، مختار الأخبار، ص ١١١؛ أبو بكر ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر (تحقيق هانس روبرت، القاهرة، ١٩٦٠م) ، ج، ١٥.

([٤٥٦]) العينى، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠٠، ٤٦٢، ٤٦٣؛ النويرى، نهاية الإرب، ج٣١، ص ٣٨٣ – ٣٨٤.

([٤٥٧]) السيد الباز العرينى، المماليك،(دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م)، ص ٥٧؛

David Ayalon , op. cit. p. 91.

([٤٥٨]) المقريزى، السلوك، ج٢ ق١، ص ٢٢.

المملوكية وظلوا عليها ونشروها وتمثلت هذه العادات في انتشار بعض الأطعمة والأشربة الغريبة مثل عادة أكل لحوم الخيول في حفلات الزواج والمناسبات السعيدة[٤٥٩]. فقد بالغ الحكام والأمراء في استخدام الخيول على المائدة السلطانية، وذلك باستهلاك عدد ضخم من الخيول فعلى سبيل المثال قد استخدم الأمير قوصون خمسين فرسا في وليمة زفاف ابنه وكذلك في حفل زواج الأمير آنوك بن الناصر محمد بن قلاوون، أما الأمير التتري بشتاك الناصري فكان يقدم على مائدته يوميا حوالي خمسين فرسًا أما لحم الضأن فكان طعاما عاديا للمماليك الأقل ثراءً[٤٦٠].

بالإضافة إلى انتشار أنواع جديدة من الخمور التي شغف بها السلاطين المماليك وأكثروا من شربها وتجاهروا بها في كل مكان، وتشير المصادر إلى أن الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون كانا يشربان الخمور في مجالس الأنس والشراب وقد خصصا قاعة لإقامة مجالس الشراب[٤٦١].

كما أدى وجودهم إلى انتشار الفساد واللواط والزنا، وخاصة بعد قدوم المغول الأويراتية وإقامتهم في الحسينية حيث كانوا يتصفون بالجمال الرائع ولذا افتتن بهم السلاطين المماليك والناس وتنافسوا على أولادهم واتخذوا منهم عددا كبيرا وقربوهم إليهم في مجالسهم فأدى ذلك إلى انتشار نوع من الشذوذ الجنسي بين الذكور[٤٦٢].

ومن العادات الأخرى عادة تطويل الشعر عند الذكور حيث جاءوا بهذه العادة

---

(٤٥٩) الحسن بن عمر بن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك (مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ)، ج٢، ورقة ٢٩٦؛ المقريزى، نفسه، ج٤، ق١، ص ٤٣٤.

(٤٦٠) Robert Erwin , the middle east in the middle ages (London , 1986) , p. 115.

وهذه عادة جاء بها أيضا المغول الأويراتية حيث كانوا يأكلون الخيول دون ذبحها بل يربط الفرس ويضرب حتى الموت ثم يأكلونه وفقا لتقاليدهم الوثنية.

(٤٦١) محيى الدين بن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (تحقيق مراد كمال، القاهرة، ١٩٦١)، ص٢٦٥؛ أبى الفضل عبد الرازق البغدادى بن الفوطى، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (بغداد، ١٣٥١هـ)، ص ٣٩٢.

(٤٦٢)المقريزى، الخطط، ج٣، ص ٣٦؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٨.

من بلادهم وتأثر بها الحكام والأمراء، ففي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م أمر الناصر محمد بن قلاوون الأمراء والجند بقص شعورهم وكذلك فعل هو نفس الشيء والعودة إلى الشعر القصير كما اعتادوا على ذلك من قبل[٤٦٣].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل انتشرت البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة حيث كانت العناصر المغولية الوافدة محبة لمعرفة الطالع والنجوم والتنبؤات بما سيحدث في المستقبل مما جعل المصادر المعاصرة تصفهم بأنهم كانوا مولعين بالنجوم وما يقوله أرباب التنجيم[٤٦٤].

ومن العادات الأخرى عادة اقتران اسم الابن باسم الأم حيث اعتمد المغول في أوطانهم على ذلك فقد قيل في ترجمة الناصر محمد (هو محمد بن قلاوون السلطان، الملك الناصر، ناصر الدين أبو المعالي، أبو الفتوح، ابن الملك المنصور سيف الدين الألفي، وأمه أشلون خاتون بنت سكتاى بن قراجين[٤٦٥]، في حين قال عنه آخرون: "..... وأمه بنت سكتاى بن قراجين جغتاى التترى وإن قدومه مع أخيه من بلاد التتر سنة خمس وسبعين وستمائة"[٤٦٦]، كذلك يذكر الصفدي[٤٦٧]، في حوادث سنة ٧٣٢هـ بقوله: "دخل ابن السلطان آنوك بن الخوند طغاى على بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وكان عرسا عظيما" وهنا يمكن القول إن المغول الوافدين قد ساهموا في نشر عادات وتقاليد جديدة لم تكن موجودة من قبل ولكن كانت الطبقة الحاكمة أكثر استجابة لهذه العادات الجديدة من المصريين.

---

(٤٦٣) المقريزى، السلوك، ج٢ق١، ص ١٤٨.

(٤٦٤) المقريزى، المقفى الكبير (تحقيق محمد اليعلوى، بيروت، ١٩٩١م)، ج٢، ص ٢٣؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة العامة، ١٩٨٥م)، ج٣، ص ٤٦٧ – ٤٦٩.

(٤٦٥) المقريزى، السلوك، ج١ق٣، ص ٧٩٣.

(٤٦٦) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٦٤.

(٤٦٧) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، الوافى بالوفيات (إصدار جاكلين سوبلة، على عمارة، فبسيان، ١٩٨٠م)، ج٢، ص ٣٦٩.

الأسرى الأجانب ودورهم الاجتماعي:

كثرت أعداد الأسرى الأجانب في الدولة المملوكية نتيجة للحروب التي خاضتها ضد أعدائها في الخارج مثل المغول والأورمان والفرنجة، وهؤلاء الأسرى قد تم التعامل معهم وفقا لقواعد ونظم معينة سبق وأن أوضحناها في الفصل الثاني وهنا نتناول عرض لأحوال الأسرى الذين ظلوا في الأسر والاعتقال حيث عاشوا في السجون والمعتقلات حياة مختلفة عن حياة المجتمع المصري.

وبداية قد أمكننا التعرف على أنواع السجون التي عاش فيها الأسرى الأجانب مثل خزانة البنود والتي بناها الخليفة الفاطمي الظافر لتخزين أنواع البنود والرايات والأسلحة ثم احترقت عام ٤٦١هـ ثم أصبحت سكنًا للأمراء وكبار رجال الدولة [٤٦٨]، وظلت هكذا حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون حيث استخدمها سكنًا للأسرى الأرمن والفرنج بعد حضوره من الكرك ثم اقتصرت على الأرمن فقط، فقد عاشوا فيها وتوالدوا وعصروا الخمور وباعوها وتمتعوا بحياتهم ومارسوا شرب الخمر وتربية الخنازير وبيع لحومها وممارسة الدعارة والشذوذ الجنسي [٤٦٩]، ولكن لم يستمر هذا الوضع فعندما علم الأمير حاج آل ملك الجوكندار بما يفعله الأسرى الأجانب من شرب الخمور والفساد الخلقي وأن مماليكه يشربون الخمر ويتسامرون معهم ضاق بهم ذرعا وطلب من الناصر هدمها ولكنه رفض ذلك[٤٧٠]، ثم تحقق له ذلك في عهد الصالح إسماعيل بن الناصر محمد حينما تولى آل ملك منصب نائب السلطنة فاشترط عند توليه هدم خزانة البنود التي أصبحت سكنا للأسرى الأرمن فوافق على ذلك وأراق ما بها من خمور [٤٧١]، ونودي في شوارع القاهرة بشراء

([٤٦٨]) المقريزى، الخطط،ج٢، ص ٢٨٠؛ اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء (تحقيق محمد حلمى، القاهرة، ١٩٧١م)، ج٢، ص ٢٨٣؛ أحمد بن يوسف القرمانى، أخبار العباد وآثار الدول في التاريخ (تحقيق أحمد حطيط، فهمى سعد، بيروت، ١٩٩٢م)، ج٢، ص ٢٧٦.

([٤٦٩]) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٨٠ – ٨١؛ السلوك، ج٢ق٣، ص ٦٤٠؛ شمس الدين الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون (تحقيق بربارة شيفر، فبسيان، ١٩٧٨م) ، ص ٢٥٠.

([٤٧٠]) المقريزى، السلوك، ج٢ق٣، ص ٦٤١.

([٤٧١]) المقريزى، نفسه، ج٢ق٣، ص ٦٤٢؛ الخطط، ج٢، ص ٢٨١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ق١،

أراضيها وبني فيها الدور والطواحين وأمر بالأسرى فأنزلوا بالقرب من المشهد النفيس بجوار كيمان مصر وأنزل من كان منهم أيضا بالقلعة وسكنوا معهم[٤٧٢]، وقد فرح الناس كثيرا لهذا الأمر حيث قيل " في سنة ٧٤٤هـ قد طهر الله تلك الأرض وأراح العباد من شرهم فإنها كانت شر بقعة "[٤٧٣].

وهناك أيضا سجن خزانة شمايل أو شمائل وهى تنسب إلى والى القاهرة في عهد الملك الكامل الأيوبي فسميت باسمه[٤٧٤]، وفى العصر المملوكي سجن به أصحاب الجرائم العظيمة ومن حكم عليه بالقتل أو بقطع يديه للسرقة وقطاع الطرق وقد اتصف هذا السجن بأنه أشنع السجون وأقبحها منظرا[٤٧٥]، وما زال هكذا حتى هدمه المؤيد شيخ في سنة ٨١٨هـ وأدخل فيما هدمه من الدور والمساكن لبناء مسجده ومدرسته[٤٧٦].

بالإضافة إلى سجن المقشرة وسمى بهذا الاسم نسبة إلى دار قشر القمح التي كانت بجواره في باب الفتوح، وقد بنى في أعقاب هدم سجن شمايل ليكون سجنا أشد سوءا من سابقه وقاس فيه الأسرى والمسجونون الكرب والضيق والأذى بصورة لا يمكن وصفها [٤٧٧]، ثم أغلق المؤيد شيخ في سنة ٨٢٠هـ وفتح بدلاً منه سجن الرحبة ثم تبين أنه غير صالح للمسجونين فأعيد فتح سجن المقشرة وعاش به الأسرى الأجانب وأصحاب الجرائم الجنائية الكبرى والذين تسببوا في عدم الاستقرار وإحداث

ص ٥٠٠.

([٤٧٢]) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٢٨١؛ الشجاعى، المصدر السابق، ص ٢٥٥.

([٤٧٣])المقريزى، نفسه؛ ابن إياس، المصدر السابق، ص ٥٠٠؛ ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر، ج١، ص ٣٧٠.

([٤٧٤]) المقريزى، نفسه، ج٣، ص ٣٠٥؛ القلقشندى، صبح العشى، ج١٣، ص ٩٣.

([٤٧٥]) المقريزى، الخطط، ج٣، ٣٠٥.

([٤٧٦]) المقريزى، نفسه، ج٣، ص ٣٠٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٢٣ – ٢٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٦.

([٤٧٧]) المقريزى، نفسه.

الشغب والإخلال بالأمن العام في البلاد[٤٧٨]، ولكنه كان يستخدم سجنًا مؤقتًا حيث كان يحبس فيه الأسرى لفترة محدودة حتى ينظر السلطان في أمرهم ويصدر قراره [٤٧٩].

أما سجن القلعة فقد عاش فيه الأسرى الأجانب الذين اختصهم السلطان لنفسه[٤٨٠]، فيذكر المقريزي أن الناصر محمد بن قلاوون اتخذ بعض الأسرى وأحضرهم إلى مصر من بلاد الأرمن وغيرها وأنزل بعضهم في سجن قلعة الجبل [٤٨١]، ثم هدم هذا السجن كما هدم سجن خزانة البنود وأراق خمورهم وطردهم من القلعة مع نصارى خزانة البنود في موضع بجوار الكوم فيما بين جامع بن طولون ومصر، فاتخذوه سكنا لهم[٤٨٢].

هذا إلى جانب أحواش الصيد حيث كان الناصر محمد بن قلاوون مولعا بالصيد ولذا أقام أحواشا بالقلعة وجعل فيها خدما من الأسرى النصارى ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أقام هذه الأحواش في كل الأقاليم المصرية وسكن بها الأسرى لتربية الطيور والأغنام [٤٨٣].

يضاف إلى ذلك أنه كان يسمح للأسرى بالخروج نهارا للعمل في أحد مشروعات الدولة أو في العمائر السلطانية حيث كانوا مكبلين بالسلاسل الحديدية خوفا من هربهم، ثم تزايدت الحراسة ليلا، ويمنعهم السجان من المبيت خارج السجن أو الخروج للحمام أو للكنيسة، ولا يسمح لهم بترك لحيتهم، كما كان عليه التأكد من عددهم ليلا ونهارا [٤٨٤].

([٤٧٨]) المقريزى، السلوك، ج٤ ق١، ص ٨٢٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٤١٠.

([٤٧٩]) الصيرفى، إنباء الهصر بأنباء العصر (تحقيق حسين حبشى، دار الفكر العربى،١٩٧٠م)، ص ٤٤٤.

([٤٨٠]) العمرى، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٤٣.

([٤٨١]) المقريزى، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٦٤١.

([٤٨٢]) نفسه.

([٤٨٣]) غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهرى، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (صححه بولس رايس، باريس، ١٨٩٤م)، ص ١٢٧ – ١٢٨؛ المقريزى، السلوك، ج٢ق٢، ص٥٣١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧١.

([٤٨٤]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٩٣؛ فايد حماد عاشور،التنظيمات العسكرية المغولية و

كما كان يتعرض المسجونون للضرب أو القتل في حالة ارتكابهم أي فعل شنيع يستدعى ذلك، مثل القتل أو محاولة الهرب، فيذكر الصيرفي: أن مسجونا عاش لسنوات طويلة في سجن المقشرة، وفى كل يوم كان لزاما عليه دفع مبلغ من المال للسجان ولكن السجين قد ضاق ذرعا بذلك الأمر، فقرر الهرب خوفا من الضرب والتعذيب، فتشاجر مع أحد الجند وقتله، فأمر السلطان بإشهاره على جمل في شوارع القاهرة قبل إعدامه[٤٨٥].

في حين نرى صورة رحيمة مع هؤلاء الأسرى في بعض الأحيان، فقد خصص لهم الناصر محمد رواتب محددة من الخزانة السلطانية[٤٨٦]، كما أنعم على الأسرى من المهندسين والبنائين والنجارين بالأموال حينما انتهى بناء القصر الأبلق بالقلعة[٤٨٧]، أما الظاهر برقوق فقد منح خمسة دنانير لكل أسير بعد الانتهاء من بناء مدرسته [٤٨٨]، وفى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م أصدر والى القاهرة بناء على أوامر السلطان قرارا بمنع حصول السجان وزوجته على أموال من الأسرى المسجونين[٤٨٩].

هذا وقد لعب الأسرى الأجانب دورًا اجتماعيًا ذا تأثير قوى في نواحي متعددة، فمن الناحية السياسية اعتمد السلاطين المماليك على هؤلاء الأسرى في استطلاع أخبار العدو، أو استخدامهم في الترجمة في البلاط المملوكي، وفى إعداد المعاهدات والمفاوضات التي عقدت بين سلاطين المماليك وملوك الغرب، أو بين الصليبين، أو بين المغول، طالما استمرت الحروب والمشاحنات [٤٩٠]، ولا شك أن الأسرى الأجانب

المملوكية (دكتوراه غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٧٢م)، ص ٣٧٠.

([٤٨٥]) الصيرفى، المصدر السابق، ص ٢٠٣ – ٢٠٤.

([٤٨٦]) المقريزى،السلوك،ج٢ق٣،ص٤٧٦.

([٤٨٧]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ق١، ص ٤٤٥.

([٤٨٨]) نفسه، ج١ ق٢، ص ٣٧٢.

([٤٨٩]) الصيرفى، إنباء الهصر،ص ٣٢١؛ المقريزى، السلوك ج٢ق١، ص ١٥١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٤٦.

([٤٩٠]) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

كانوا مصدرا هاما من مصادر المعلومات عن العدو، حيث كانت السلطات المملوكية تسأل الأسير الأجنبي بعض الأسئلة التي تحمل في باطنها معلومات ذات قيمة سياسية وعسكرية هامة[٤٩١].

وليس أدل على ذلك الدور مما حدث عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، حينما ورد الخبر إلى السلطان المنصور قلاوون بدخول منكو تمرخان إلى بلاد الروم، فأرسل السلطان كشافة لاستطلاع، الأمر فأسرت عددا من جند المغول، وذكر أحدهم عدد الجيش المغولي وخطة الحرب ولذا استطاع المنصور قلاوون تحقيق النصر على المغول [٤٩٢]، وفى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، أثناء موقعة مرج الصفر ضد التتار جاء أحد الأسرى المغول إلى الناصر محمد بن قلاوون، وأخبره بخطة التتار، مما دفع بالناصر إلى تغيير خطته [٤٩٣]، وكذلك ما حدث في عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م عندما طلب ملك أراجون الأسباني الإفراج عن أسير لدى الناصر محمد بدون مقابل، فقد كذب ذلك الملك بشأن ذلك الأسير، فصدقه السلطان وأطلق سراحه ولكنه علم عن طريق أحد الأسرى الأجانب أنه ابن ملك عظيم، ويستطيع فداء نفسه بالذهب فأمر السلطان بعودته من الإسكندرية إلى القاهرة بعد أن استعد ذلك الأسير للسفر مع سفراء الملك الأراجونى [٤٩٤].

ومن المرجح أن بعض هؤلاء الأسرى الأجانب قد اعتنق الإسلام، واندمج في السلك العسكري، ووصل إلى مناصب عليا مثل السلطان العادل زين الدين كتبغا الذي كان أسيرا مغوليا من موقعة حمص الأولى في عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م [٤٩٥]، وكذلك

([٤٩١]) على السيد على " الجاسوسية في عصر سلاطين المماليك "،(مجلة فكر للدراسات،١٩٨٦م)، ص ١٤٠.

([٤٩٢]) ابن بهادر، المصدر السابق، ورقة ٣٢٧؛ المقريزى، السلوك، ج١ ق٣، ص ٦٣٠.

([٤٩٣]) المقريزى، نفسه، ص ٦٣٦؛ الذهبى، العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٨.

([٤٩٤]) المقريزى، نفسه، ج١ق٣، ص ٩٥٠.

([٤٩٥]) ابن تغرى بردى، مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة (تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م)، ج٢، ص ٤٨؛ محمد بن على الشوكانى، البدر الطالع بمحاسن القرن السابع الهجرى (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م ١٣٨٢هـ)، ج١، ص ٣٩٢؛ السيوطى، حسن

الأمير سلار التتري المنصوري الذي كان أسيرًا مغوليًا فاشتراه المنصور قلاوون في أيام الظاهر بيبرس، وتولى منصب نائب السلطنة في عهد الناصر محمد بن قلاوون [٤٩٦]، وأيضا الأمير برلغى الذي أسره الأمير مهنا أمير العرب في غزواته مع التتار، وبعث به إلى المنصور قلاوون، وترقى في الخدمة حتى تولى إمرة الحج عام ٧٠٢هـ[٤٩٧]، ومن الأسرى الفرنج كان السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير، الذي تولى السلطنة في عام ٦٦٩هـ/١٢٩٦م [٤٩٨]، ومن الأسرى الأرمن كان الأمير سيف الدين قرطاي الذي تولى عدة مناصب، وولى ابنه في وظيفة نقيب الجيش حتى صار من جملة كبار الأمراء المماليك [٤٩٩]، أما الأسرى النوبيون فقد كانوا رهائن يعيشون في القصر السلطاني، واعتنق بعضهم الإسلام، واستخدمهم السلاطين المماليك في حفظ التوازن السياسي بين ملوك النوبة وحكام مصر، بمعنى أنه كلما تمرد ملك نوبي على السلطان المملوكي ورفض الخضوع له فيرسل قواته إلى النوبة ويقوم بعزله، ثم يولى أميرا نوبيا جديدا من الأمراء المقيمين لديه في القصور السلطانية [٥٠٠].

ومن الناحية الاجتماعية كان للأسرى الأجانب دور وتأثير اجتماعي واضح، نذكر منه ما جاء على لسان المؤرخ ابن إياس عند حديثه عن الأمير سلار التترى بأنه قد ابتكر ملابس جديدة سميت بالسلارى نسبة إليه، وكانت عبارة عن قميص صوف أبيض مبطن بالفراء ومحلى بزخارف رائعة الجمال [٥٠١]، كما ارتدى الأمراء

المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٨٦م) ج٢،ص ١١٢

(٤٩٦) ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (تحقيق الشيخ عبد الوارث محمد على، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م) ج٢، ص ١٠٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ق١، ص ٤٢٥ – ٤٣٣؛ المقريزى، السلوك، ج٢ق١، ص ٥.

(٤٩٧) ابن حجر، نفسه،ح١،ص٢٨٠؛ المقريزى، المقفى الكبير، ج٢، ص٥٠٤.

(٤٩٨) عزيز سوريال، العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة، ١٩٧٢م)، ص ١٧٢.

(٤٩٩) المقريزى، السلوك، ج٤ ق٣، ص١٠٦٣.

(٥٠٠) ابن بهادر، المصدر السابق، ورقة ٤٩٩؛ المقريزى، السلوك، ج١ ق٢، ص ١٦١؛ الخطط، ج١، ص ٣٢٦؛عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، ١٩٦٨م)، ج٥، ص ٤٢٩

(٥٠١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ق١، ص ٤٣٦؛ ماير، الملابس المملوكية (ترجمة صالح الشيشى، القاهرة، ١٩٧٢م)، ص ٤٤.

والسلاطين المماليك أقبية تترية بدلا من القمصان التي كانت تلبس في العصر الفاطمي، حيث كان للأقبية التترية كمران تلف الصدر من اليسار إلى اليمين، وهى عكس الأتراك الذين يفضلون الكمر الذي يلف من اليمين إلى اليسار، وكان يصنع من الصوف أو القطن البعلبكي، ولونه أبيض مزين بأشرطة حمراء وزرقاء وله أكمام ضيقة[٥٠٢]، كما كان للأسرى الفرنج تأثير على ملابس المماليك، حيث كانوا يرتدون الملابس ذات الأكمام الضيقة، وهى تتشابه إلى حد ما مع النموذج الفرنجى، رغم أن السلطان المنصور قلاوون منع ذلك و أمر بتوسيع الأكمام إلا أنه كان إصلاحا مؤقتا، فسرعان ما عادت الأكمام الضيقة[٥٠٣]، هذا ولم نعثر في المصادر المعاصرة على ما يفيد بوجود تغييرات في ملابس المصريين وإن حدث ذلك فهي نابعة من المجتمع المصري نفسه، ولا تمت بصلة إلى الوجود الأجنبي.

هذا بالإضافة إلى قيام بعض الأسرى الأجانب بالألعاب المسلية، مثلما حدث عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، حينما قام أحد الأسرى الفرنج بنصب حبل من أعلى مأذنة مدرسة الناصر حسن حتى أعلى المدرسة الأشرفية وسار على الحبل وهو يقوم ببعض الحركات والألعاب البهلوانية [٥٠٤].

وقد كان للأسرى الأجانب دور في الفساد الخلقي والانحلال الذي ظهر واضحا في العصر المملوكي الثاني، مما أدى إلى تطرق التدهور في نواحٍ متعددة داخل المجتمع المصري، وبدا ذلك واضحا على الحكام ومن أمثلة ذلك انتشار أنواع جديدة من الخمور مثل مشروب القمز أو القميز وأول من شربه كان الظاهر بيبرس [٥٠٥]، وكان يصنع من لبن الخيول المحمض ثم اعتمد عليه المماليك في حفلاتهم ومجالسهم،

([٥٠٢]) ابن إياس، نفسه؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٢٠؛ ماير، نفسه، ص ٤٠ - ٤١.

([٥٠٣]) ماير، نفسه، ص ٤١.

([٥٠٤]) المقريزى، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٧١٣.

([٥٠٥]) المقريزى، نفسه، ج١ق٣، ص ٦٠٧؛ إبراهيم بن محمد بن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (تحقيق سعيد عاشور، أحمد دراج، الرياض، ١٩٨٢م)، حاشية (٨)، ص ٣٤٩؛ ابن الفوطى، المصدر السابق، ص ٣٩٢.

وأصبح المشروب الرئيسي بالنسبة لهم [٥٠٦]، وكذلك مشروب التمر بغاوي نسبة إلى الأمير تمربغا المنجكى الذي كان أسيرا مغوليا، وهذا المشروب يصنع من الزبيب المخلوط بالماء، وقد شاع استخدامه في عصر الظاهر برقوق[٥٠٧]، يضاف إلى ذلك ما ادخله الأسرى الأرمن من أنواع أخرى من الخمور جلبوها معهم من بلادهم، حيث كانوا يعصرون الخمور بكثرة في مساكنهم، سواء في خزانة البنود أو في القلعة، وبلغ مقدار ما يعصرونه من الخمر حوالي ٣٢ ألف جرة كل عام، ويباع في اليوم الواحد نحو اثنى عشر رطلا، كما ظلوا يربون الخنازير ويقومون ببيعها[٥٠٨]، ولم يقتصر الأمر على الأسرى فقط، بل كانت هناك فئات معينة من المصريين عصروا الخمور وباعوها واستخدموها في الحفلات والأعياد والموالد، وذلك رغم المراسيم السلطانية بمنع شرب الخمر ومعاقبة صانعيها وحبس من يشربها وتخريب الحانات والضرب على أيدي المفسدين، مثلما حدث عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م عندما أصدر الظاهر بيبرس مرسوما إلى كل الديار المصرية والشامية بمنع الخمور ثم مرسوما آخر عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م [٥٠٩]، إلا أنها كانت مجرد حبر على ورق، وليس لها صدى في النفوس، فسرعان ما يعود الناس إلى عصر الخمور وبيعها وشربها.

كما كان للأسرى الأجانب دور في نشر الشذوذ الجنسي والفساد الخلقي ومعاشرة النساء الغانيات، لدرجة أنهم قد خصصوا دورا لممارسة الدعارة، وذلك ما ذكره الشجاعى حيث قال " ومن اختار أن يقصدهم يشرب عندهم ما يحلوا له ويخلو

([٥٠٦]) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو (ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة،١٩٩٦م)،ج١،ص ١٣٩.

([٥٠٧]) بيبرس الدوادار، التنحفة المملوكية، ص ١٠٥؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج١، ص ٣٦٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٢٥؛ ماركو بولو، المصدر السابق، ج٢، ص ٧٨؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٤٢٤.

([٥٠٨]) المقريزى، السلوك، ج٢ق٣، ص ٦٤١.

([٥٠٩]) أبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (القاهرة، ١٣٥١هـ)، ج٥، ص ٣٢٤؛ العينى، عقد الجمان، ج٢، ص ٨٠.

له المكان ولا يعارضه معارض وقد تزايد عددهم كثيرا " [٥١٠]، وهذا معناه أن مساكن الأسرى كانت مقرا للفساد حيث يأتيهم الفساق والمفسدون من كل مكان لشرب الخمر وللإقامة عندهم لعدة أيام لمعاشرة الغانيات والفواجر من النساء، ولذلك كان يقال عنهم " كانت المرأة إذا تركت زوجها أو أهلها أو أن الجارية إذا هربت من مولاها أو أن الشاب إذا ترك أباه ودخل عند الأرمن لا يقدر أحد على أخذه وانتشاله من أيدي هؤلاء المفسدين "[٥١١]، ويقال إن بعض هؤلاء الأسرى كانوا ينضمون إلى المجرمين وقطاع الطرق وتجار الخمور والحشيش، فشكلوا خطرا على المجتمع المصري[٥١٢]، ولكن هذا الوضع غير صحيح لأنه لم يثبت في المصادر المعاصرة هروب أسير أجنبي من السجن نتيجة لشدة الرقابة عليهم ليلاً ونهارًا.

ولقد سخرهم السلاطين المماليك في الأعمال الشاقة مثل أعمال البناء والتشيد والحفر، فقد اعتمد عليهم السلطان صلاح الدين الأيوبي في بناء قلعة الجبل وفى بناء أسوار القاهرة[٥١٣]، أما الظاهر بيبرس فقد اعتمد عليهم في بناء العمائر السلطانية في بلاد الشام، وكذلك العمل في الحصون الإسلامية [٥١٤]، وفى عصر المنصور قلاوون استخدم ثلاثمائة أسير أجنبي في بناء المارستان المنصوري والمدرسة والسبيل ومكتب الأيتام [٥١٥]، كما سار على نفس المنهج الأشرف خليل بن قلاوون والناصر محمد، حيث استخدم الأسرى الأرمن والفرنج في العمل كفلاحين في الإقطاعيات والأراضي الزراعية[٥١٦]، بالإضافة إلى اشتراكهم في شق الترع والجسور وجلب الحجارة وحفر

([٥١٠]) الشجاعى، المصدر السابق، ص ٢٥٥.

([٥١١]) المقريزى، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٦٤١؛ الخطط، ج٢، ص ٢٨١.

([512])Lapidus , Muslim cities in the latter middle ages (London , 1967) , p. 84.

([٥١٣]) آشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط (ترجمة عبد الهادى عيلة، دمشق، ١٩٨٥م)، ص ٣١٠؛ فايد حماد عاشور، التنظيمات العسكرية، ص ٣٨٦.

([٥١٤]) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ورقة ١٣٦٥؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨.

([٥١٥]) المقريزى، الخطط، ج٤، ص ٢٦١.

([٥١٦]) الشجاعى، المصدر السابق، ص ٨.

الخلجان[٥١٧]، وكذلك في بناء مسجد الأمير قوصون الذي كان بجوار حارة المصامدة حيث استعان في بناءه بعدد من الأسرى الأجانب[٥١٨]، كما كانوا يعملون في الحظائر وأحواش الحيوانات والطيور التي بناها السلاطين المماليك من قوص إلى الجيزة لتربية الطيور والحيوانات التي كان يصطادها السلطان[٥١٩]، وفى أحيان أخرى كان يتم استخدامهم لخدمة الجيش في وقت الحرب، فعندما حاصر الظاهر بيبرس حصن أرسوف اعتمد على الأسرى الأجانب في هدم سور الحصن[٥٢٠]، وعلاوة على ذلك فقد كانوا يشاركون في صنع الأسلحة، مثل آلات الأساطيل والمدافع، بل إن السلاطين استخدموهم في الحروب لضرب هذه المدافع وحراستها وصيانتها[٥٢١].

الرقيق الأجنبي ودوره الاجتماعي:

شكل الرقيق الأجنبي عنصرا هاما وكثرة عددية في دولة سلاطين المماليك، فمنهم من جاء عن طريق تجار الرقيق، ومنهم من تم أسره في الحروب ثم تم بيعه في أسواق الرقيق، ولذا نحن لا نبالغ حينما نقول إن الرقيق الأجنبي قد تواجد في كل بيت في المجتمع المصري، سواء كان هذا البيت قصر السلطان أو الأمير أو التاجر أو بيت فقيه أو بيت أحد العامة، وعلى أية حال فقد اعتمد المجتمع المصري على الرقيق بنوعيه الأبيض والأسود وبجنسيه الذكور والإناث.

أما عن استخدام الرقيق الذكور فكان حسب جنسه، فغالبا ما كان الرقيق الأبيض يعمل في الجيش والفروسية، وكان يتم اختيارهم على أساس قوة البنيان والصلابة وصحة الجسد، أما الرقيق الأسود فاستخدم عبيدا وخدما في المنازل والقصور، أو في خدمة الفرسان، وأما النوع الثاني من الذكور الذين لا يصلحون للحياة العسكرية فقد تولوا وظائف متعددة مثل الطواشى ويقصد به الغلمان الخصيان [٥٢٢]، وهؤلاء قد

([٥١٧]) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٣١٢ –٣١٣.

([٥١٨]) المقريزى، الخطط، ج٤، ص ١٠٤.

([٥١٩]) نفسه، ج٣، ص ٣٧٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧١.

([٥٢٠]) المقريزى، السلوك، ج١ق٢، ص ٥٣٠؛ ابن عبد الظاهر الروض الزاهر، ص ٢٤٣.

([٥٢١]) المقريزى، نفسه، ج١ق٣، ص ٧٧٨.

([٥٢٢]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٦٢؛ سعيد

عملوا في الآدار السلطانية (بيوت الحريم السلطاني)، وذلك لأن استخدام الذكور في بيوت الحريم يمثل مشكلة، ولذا يشترون نوع آخر من الذكور أقرب للأنوثة، أطلق عليهم الخصيان، ولجأ إليهم الحكام والناس لاستخدامهم في بيوتهم وقصورهم مع وجود الحريم دون خوف منهم[٥٢٣]، وكلمة خصي تعنى الرجل الذي لم يتصف جنسيًا بالرجولة بل هو أقرب للأنوثة وهى كلمة تساوى في المعنى كلمى طواشي[٥٢٤].

وقد اعتاد تجار الرقيق على جلب الغلمان الخصيان من أوربا والحبشة، وخاصة العناصر المسيحية الحبشية[٥٢٥]، وكانت أهم مدينتان تبيعان الخصيان السود في الحبشة هما وشلو وهدية[٥٢٦]، أما الخصيان البيض فكانوا يجلبون من بلاد الروم والهند والأندلس[٥٢٧].

أما عن مهام الطواشي فإنه كان مسئولا عن تدريب المماليك الجدد في الطباق باعتباره مشرفا أو معلما لهم؛ لذا لقبوه أحيانا بمقدم المماليك[٥٢٨]، وكذلك تولى منصب

عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٣٥.

([٥٢٣]) سعيد عاشور، العصر المماليكى في مصر والشام (دار النهضة العربية، ١٩٧٦م)، ص ٤٥٥؛ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢م) ص ١٢٤.

([٥٢٤]) المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٥م) ج١، ص ٢٤٨؛ ج٢، ص ٥٩١؛ ابن منظور، لسان العرب، (دار المعارف، ب. ت)، ج٢، ص ١١٧٨؛ الفيروز آبادى، القاموس المحيط (تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلى، بيروت، ١٩٩٧م)، ج٢، ص ١٦٧٩؛ المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م)، ص ١٩٩، ٣٩٧.

([٥٢٥]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٤٧؛ السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (دار الجيل، بيروت، ب. ت)، ج٣، ص ١٦، ١٧، ٨١ ـ٨٦.

([٥٢٦]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٣١٢هـ)، ص ٣٠؛ أبو الفدا، تقويم البلدان (تحقيق رينو دماك كوكين، باريس، ١٩٨٠م)، ص ١٦٠-١٦١.

([٥٢٧]) ابن حوقل، صورة الأرض (ليدن، ١٩٣٨م)، ج١، ص١١٠؛ السخاوى، الضوء اللامع،ج٣، ص ١٧٤ ـ ١٧٧؛ سمير الخادم، الشرق الإسلامى، ص ٣٦٧.

([٥٢٨]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٨٥؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٩، ص ٨٣ و ٩٨، ١٣٤.

الخاصكية، وتعنى: الشخص القريب من السلطان، ويقوم بخدمته، وله حق الدخول عليه بالليل والنهار ولا يفارقه لفترات طويلة[٥٢٩]، وكذلك منصب السقاه وهو أحد المماليك الملازمين للسلطان، ومسئول عن إعداد اللحوم وفرش ما يحتاجه وإعداد الشراب[٥٣٠]، وثمة وظائف أخرى مثل الجمدارية، وهى كلمة فارسية تتكون من لفظين، الأول: هو جام ومعناه الثوب، والثاني: هو دار ومعناه ممسك بمعنى أن الجمدار هو الشخص المسئول عن إلباس السلطان[٥٣١]، أما وظيفة الخازندارية فقد تولاها شخص مسئول عن خزانة بيت المال والمتصرف في الأموال الصادرة والواردة إليه[٥٣٢]، كما كان يعهد للطواشي أعمال أخرى داخل دور الحريم السلطاني الذي تتكون من قاعات لسكن حريم السلطان، وكان لكل زوجة خدم وحشم وجواري وطواشية[٥٣٣]، ويطلق عليه في هذه الحالة لقب الزنان دار أو الزمام دار، وهى كلمة فارسية مركبة من لفظين، الأول: هو زنان وتعنى النساء، والثاني: هو دار وتعنى ممسك، أي أنه هو الشخص المسئول عن خدمة النساء[٥٣٤]، ثم قيامه بوظيفة أخرى ذات أهمية وهى تربية أبناء السلطان وأبناء الأمراء الذكور، حيث يقوم بتعليمهم القراءة والكتابة والآداب منذ سن السابعة[٥٣٥].

وقد تمتع الطواشى بحرمة وافرة وكلمة نافذة ومهابة في نفوس الجميع، كما

([٥٢٩])ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، حاشية (٤)، ص ١٧٩؛ ابن شاهين الزاهرى، زبدة كشف المماليك، ص ١١٥ – ١١٦؛ محمد بن عيسى بن كنان، حدائق الياسمين في ذكر القوانين (تحقيق عباس الصباغ، بيروت، ١٩٩١م)، ص ١٠٨.

([٥٣٠])القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٤؛ ابن كنان، نفسه، ص ١٠٩.

([٥٣١]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٥٩؛ ابن كنان، المصدر السابق ، ص ١٠١.

([٥٣٢]) القلقشندى، نفسه، ج٤، ص٢٦، ج٥، ص ٤٦٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٨٥.

([٥٣٣]) القلقشندى، نفسه، ج٥، ص ٤٥٩؛ ابن شاهين الظاهرى، المصدر السابق، ص ١٢٢؛ السبكى، معيد النعم ومبيد النقم (تحقيق محمد على النجار، أبو زيد شلبى، القاهرة، ١٩٤٨م)، ص ٣٩ – ٤٠.

([٥٣٤]) القلقشندى، نفسه، ج٤، ص ٢١؛ ابن شاهين، نفسه؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٥.

([٥٣٥]) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٩، ص ١١١؛ ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة،ج١٠،ص٣٢٤.

عرف عنه الحزم والشدة وأعمال البر والصدقات، فضلا عما اشتهر به من التقوى والميل إلى تعلم الدين والتفقه فيه، مثل الطواشي شرف الدين قميص مقدم المماليك [٥٣٦]، والطواشي فيروز الرومي الخازندار الذي تربى مع الناصر فرج ابن برقوق، وكان ملازما له[٥٣٧]، وكذلك الأمير بهادر بن عبد الله الشهابي الرومي الطواشي مقدم المماليك السلطانية، الذي كانت له كلمة نافذة وكان صاحب حرمة وصيت[٥٣٨]، وأيضا الأمير فاخر بن عبد الله الطواشي مقدم المماليك الذي تميز بالسطوة والجراءة [٥٣٩].

على أن السلاطين المماليك لم يغفلوا عن مراقبة الطواشية نظرا لأهمية هذا المنصب، وبالتالي أهمية من يتولاه، فعاقبوا المقصرين منهم في أداء واجباتهم، حيث أمر السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م بقطع أيدي جماعة منهم بسبب إهمالهم في مراقبة المماليك، فقد حدث أن قام أحد المماليك بالاعتداء على امرأة في الشارع دون أن يعاقبه مقدم المماليك، ثم اشتراكهم مع نواب الولاة والخفراء في التغاضي عما ارتكبه بعض المماليك من مفاسد في شوارع القاهرة[٥٤٠]، كما أمر بشنق الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز، وعلقه تحت القلعة بسبب شربه المتزايد للخمور[٥٤١]، وفى عام ٧٢١هـ/١٣٢١م ثار المماليك على كريم الدين ناظر الخاص السلطاني بسبب تأخر رواتبهم لمدة شهرين، فغضب الناصر محمد على مقدم المماليك ونائبه ومقدمي الطباق، وطرد جماعة منهم إلى البلاد الشامية، وأخرج جماعة أخرى من القلعة، وضرب واحدا منهم مع غلامه لكونه شرب الخمر[٥٤٢].

ولكنها كانت حالات نادرة الحدوث، فقد اشتهر هؤلاء الطواشية بإخلاصهم

---

(٥٣٦) ابن الفرات، نفسه، ج٨، ص ١٠٥.

(٥٣٧) ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢٣، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٧٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٦، ص ١٣٥.

(٥٣٨) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٣، ص ٤٣٦؛ السخاوى، نفسه، ج٣، ص ١٩.

(٥٣٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٢.

(٥٤٠) المقريزى، السلوك، ج١ق٢، ص ٥٤٠.

(٥٤١) نفسه، ص ٦٢٣.

(٥٤٢) نفسه، ج٢ ق١، ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

الشديد ووفائهم للسلطان، ورغم نفوذهم وتواجدهم المستمر بالقرب منه إلا أنهم لم يشكلوا خطرا أو قوة معادية له، ولم يكن لديهم طموحات سياسية، ولم نقرأ عن شغب أو ثورة أو عصيان قام بها أحد الطواشية طوال العصر المملوكي، ولكنهم في أحيان أخرى كانوا مسئولين بشكل مباشر عن أعمال الشغب والعنف التي قام بها المماليك الجلبان في العصر المملوكي الثاني، لأنهم لم يهتموا بتربية المماليك الجدد، فأدى ذلك إلى تطرق الفساد إلى الدولة، مما جعل المماليك الجلبان يقومون بأعمال السلب والنهب والفوضى فأثاروا الفزع والرعب في نفوس العامة في الشوارع، وسادت الفوضى، وعم الفساد، مما أثر على عمليات البيع والشراء، فأدى ذلك إلى إغلاق الأسواق والحوانيت، وفسدت البضائع وضاعت الأموال(٥٤٣).

بالإضافة إلى استخدام الأمراء للعبيد السود في إثارة الفوضى، حيث استأجروهم لمصالحهم الخاصة، فكان ذلك مشجعا لهم، حيث فرضوا عليهم مبلغاً من المال مقابل ممارستهم لبعض الأعمال، مثل بيع الخمور والحشيش، فضلا عن حصولهم على عطايا و أموال كثيرة عن طريق النهب والسلب في أحياء المدينة وأسواقها، في حين كان الأمراء يتركونهم يفعلون ما يشاءون في مقابل الاعتماد عليهم في حروبهم وصراعهم ضد أعدائهم، بل قد تطور الأمر في العصر المملوكي الثاني إلى فرض نوع من الإتاوات على الأعيان وكبار التجار، إذ جرت العادة أن يفرض زعيم هؤلاء العبيد مبلغا من المال على أحدهم، فإذا رفض الدفع تعرض للعقاب الشديد(٥٤٤)، وفى أوقات كثيرة كان السلطان يصدر قرارته بمنع خروج الرقيق بعد المغرب ومنعهم من حمل السلاح أو مجرد عصاه وذلك بعد ازدياد ضررهم وشرورهم(٥٤٥). كما استخدم العامة العبيد في بيوتهم وفى حوانيتهم للقيام بأعمال متعددة.

---

(٥٤٣) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك (دار عين للنشر، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢٣٩.

(٥٤٤) Lapidus , op. cit. p. 171 – 174.

(٥٤٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٨٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ٩٨.

أما فيما يتعلق بالجواري الأجنبيات ودورهن في المجتمع المصري، فقد لاحظت شغف الحكام والمحكومين باقتناء الجواري، ودفع الأموال الطائلة في شرائهن، كل حسب مقدرته وإمكاناته المادية، ووفقا للظروف الاقتصادية ومن جنسيات متعددة، حيث كان لدى الظاهر بيبرس حوالي مائتي جارية[٥٤٦]، أما الناصر محمد بن قلاوون فقد بلغ عدد جواريه أكثر من ألف ومائتي جارية[٥٤٧]، وهناك من وجد لديه مائة وعشرين جارية وستين عبدا[٥٤٨].

ولا شك أن هؤلاء الجواري قد قمن بمهام محددة وفقا لمقوماتهن وصفاتهن، حيث وجدت الجواري السرارى ويقصد بهن من تقوم بخدمة سيدها وتظل بجواره وتصبح ملك يمينه يتمتع بها كيف يشاء وتعمل على راحته وإسعاده[٥٤٩]، وتليها الجواري المرضعات والدادات، حيث عهد إليهن إرضاع الأطفال ورعايتهم وتربيتهم، وكان يفضل اقتناء المرضعات الحبشيات والنوبيات[٥٥٠]، ثم الطاهيات اللاتي أقمن في المنازل والقصور، وكن من جنسيات متعددة، فقد وجد عند الوزير الصاحب تقي الدين عبد الوهاب بن فخر الدين جاريتان تحسن كل واحدة منهما ثمانين نوعا من التقالى، هذا سوى باقي أنواع الأطعمة الأخرى[٥٥١]، وكذلك وجدت الجواري الراقصات والعوادات والمغنيات، حيث أقبل الحكام والناس على الطرب والشعر وأنواع الفنون المختلفة، وأقاموا مجالس الشراب والرقص والغناء ، وأصبحت العادة لدى كل سلطان أو أمير أو أحد الأعيان الأثرياء وجود مجموعة من المغنيات والعوادات في

([٥٤٦]) ابن إياس، نفسه، ج١ق١، ص ٣٣٧؛ المقريزى، السلوك، ج٤ق٢، ص١٠٢٦.

([٥٤٧]) المقريزى، الخطط، ج٣، ص ٣٤٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧٥.

([٥٤٨]) المقريزى، السلوك، ج٢ ق٢، ص ٤٠٩.

([٥٤٩]) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول (بولاق، ١٢٩٥هـ)، ص ١٣٠؛ عبد السلام هارون (نوادر المخطوطات، القاهرة، ١٩٧٢م)، ج١، ص ٣٣٩.

([٥٥٠]) مصطفى محمد سعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى (الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م)، ص ١٣٩؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٥٥.

([٥٥١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ق١، ص ٥٧٤؛ المقريزى، السلوك، ج٣، ق١، ص ٥٩.

بيته[٥٥٢]، كذلك كان يتم استخدام هؤلاء الجواري في القيام بكثير من الأعمال المنزلية من غسل وكنس وطهي ونظافة، فضلا عن إحضار المياه في الحالات التي يتعذر فيها الحصول عليه وبخاصة إذا نقص ماء النهر[٥٥٣].

وقد حظيت الجواري في المجتمع المصري بالعناية والاهتمام من جانب الحكام والناس، فقد عاملوا الرقيق بصفة عامة بلطف ورفق، حتى أصبح العبد أو الجارية جزءا لا يتجزأ من بيت سيده، فكانت العلاقة إنسانية رحيمة[٥٥٤]، فعندما يتزوج السيد من جاريته جرت العادة وفقا للشرع الإسلامي أن يعاملها معاملة النساء الأحرار، من حيث الصداق وتخصيص سكن مناسب للعيش فيه[٥٥٥]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كن مثل بناتهم اللاتي يحتجن للرعاية والتربية مثال ذلك ما فعله الشيخ برهان الدين الشامى الضرير حيث خصص حصة من حمام الرومي للإنفاق على جاريته بعد وفاته[٥٥٦]، كما خصص السلطان المنصور قلاوون المارستان المنصوري لعلاج المرضى من الأحرار والعبيد ذكورا وإناثا[٥٥٧].

هذا إلى جانب ما تشير إليه بعض وثائق الوقف في ذلك العصر من حرص الحكام والناس على توفير مورد ثابت للرزق لجواريهم عقب وفاتهم، وخاصة إذا كان المالك الأصلي ليس له وريث أو لا يرغب في إعطاء الميراث لأشخاص لا يستحقونه، وكذلك كي لا تذهب أمواله أيضا إلى ديوان المواريث، مثل وثيقة وقف القاضي سديد الدين، وفيها وقف القاضي الدار على جاريته ثم ابنه الذي بدوره أوقفها على هذه الجارية عتيقة أبيه تنتفع بها بالإقامة والإسكان وقبض أجرتها مدى الحياة، ومن بعدها

([٥٥٢]) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (دار الفكر، ١٩٩٠م)، ج١، ص٢٧٢؛ محمد قنديل البقلى، الطرب في العصر المملوكى(الهيئة العامة، ١٩٨٤م)، ص ٩ – ١٠.

([٥٥٣]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٥٨٥.

([٥٥٤]) أحمد شفيق بك، الرق في الإسلام (ترجمة احمد زكى، القاهرة، ١٨٩٢م)، ص ٦٧ – ٦٨.

([٥٥٥]) المقريزى، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٥٦٦؛ ج٢ ق٢، ص٥٣٦.

([٥٥٦]) المقريزى، الخطط، ج٣، ص ١٣٤.

([٥٥٧]) نفسه، ج٤، ص ٢٦٠؛ الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (تحقيق محمد محمد أمين، سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٨٢م)، ج١، ص٣٠١.

تصبح الدار وقفا على ورثة القاضي من الإناث دون الذكور، وبذلك تكون الجارية المذكورة قد انتفعت بدارها طوال حياتها[٥٥٨]، وكذلك وثيقة مسرور بن عبد الله الشبلى، حيث أوقف مسكنا لجاريته مدى حياتها تعينها على المعيشة[٥٥٩].

وما ورد في وثائق الجنيزا اليهودية خير دليل على حرص الناس على رعاية جواريهم في الحياة وفى الممات، ففي إحدى الوثائق نجد سيدة توصى زوجها وهى على فراش الموت بجاريتها قائلة له: "إن جاريتي عملت على رعايتي والاهتمام بي في مرضى هذا، وعندما كنت مريضة في السنوات الماضية، كما لو كانت أكثر من أمي أو أختي، والآن أوصيك بألا تبيعها أو يشتريها أحد وألا تهان بأية طريقة"[٥٦٠].

وكذلك حرص الحكام على تقصى أحوال الجواري، وبخاصة لدى أهل الذمة، حيث سمحت لهم الشريعة الإسلامية باقتناء الجواري الغير مسلمات مع الاعتناء بهن، ففي عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م ورد الخبر إلى السلطان قايتباي بأن شخصا باع جارية حبشية يهودية، فطلبه وطلب الشهود للتأكد من ديانتها، وتقدم البائع والمشترى والجارية والشهود أمام السلطان، حيث أقر الجميع بأنها يهودية وليست مسلمة فسمح له باقتنائها[٥٦١]. وفى حالة زواج الجارية من أحد عبيد سيدها فقد كان يشترط عند كتابة عقد زواجهما على يد عاقد الأنكحة أن ينص على: " هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان، المقرة لسيدها بالرق والعبودية، عندما خشي على نفسه العنت والفجور، وخاف الوقوع في المحظور لعدم الطول، وأنه ليس في عصمته زوجة ولا يقدر على الزواج من حرة، ولذلك فإنه سيدفع صداقا عند تزويجها إياه سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعا[٥٦٢]، كما جاز أن يتولى السيد بنفسه كتابة ذلك العقد، وفى هذه الحالة كان العقد ينص على الآتي: "هذا كتاب تزويج اكتتبه فلان لعبده فلان من أمته

---

(٥٥٨) حسنين ربيع "حجة تمليك ووقف" (المجلة التاريخية المصرية،م١٢،١٩٦٤م)،ص١٩١-١٩٢.

(٥٥٩) عبد اللطيف إبراهيم، "وثيقة مسرور بن عبد الله الشبلى " (مجلة آداب القاهرة، م ١٩، ج١، مايو ١٩٥٧م)، ص ١٤٩.

(٥٦٠) Goitein , Amediterranean socity , (London , 1963) , vol 1 , p. 144.

(٥٦١) الصيرفى، إنباء الهصر، ص ٥١٨.

(٥٦٢) النويرى، نهاية الإرب، ج٩، ص ١٢١.

فلانة المقر له كل منهما بالرق والعبودية وهو أنه أشهد على نفسه أنه زوج عبده المذكور لأمته المذكورة تزويجا صحيحا شرعيا، بسؤال كل منهما لسيده المذكور في ذلك وقبل الزواج من سيده عقد هذا النكاح لنفسه قبولاً وشرعًا ولا يعين صداقاً"[٥٦٣].

أما فيما يختص بنظرة المجتمع المصري إلى أبناء السيد من جواريه وأبناءه من زوجاته الأحرار، فقد كانت نظرة متساوية عند الحكام وعند الناس، حيث تساوى الطرفان في الحقوق والواجبات، وتولى مناصب هامة مثل المؤرخ أبى المحاسن بن تغرى بردى الذي ذكر في حديثه عن نفسه أن والده قد تزوج جواري مولدات، وله عشرة أخوة من أمهات مختلفات الجنسيات فمنها الرومية والجركسية والتركية، أما أمه فكانت مجهولة الجنسية[٥٦٤]، وكذلك الشيخ برهان الدين العزازي شيخ الشافعية فقد كانت أمه جارية [٥٦٥]، وبذلك تكون الجواري قد تمتعن بالحرية والأمان في ذلك العصر، كما حرصت جميع الطبقات على حمايتهن والتأكد من سلامتهن وتوفير مورد رزق ثابت لهن طوال حياتهم، وهذا معناه أن الإسلام قد كرمهن و أزال الفرق بين العبد والسيد والرقيق والأحرار.

وعن أثر الجواري في العلاقات الزوجية وفى الحياة العائلية، وعلى مكانة المرأة المصرية في المجتمع في العصر المملوكي، فلا شك أنه قد حدث نوع من الفتور في العلاقة الزوجية إما بسبب ما يخصصه الزوج لجاريته من أموال ورواتب، أو بسبب الغيرة الزوجية، فكان وجودهن في منازل المصريين سببًا للشكوى، ولإثارة الغيرة، مثلما حدث في عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م حينما اشتكت زوجة من زوجها إلى السلطان قايتباي لأنه قد تركها وعاشر جاريتها[٥٦٦]، ومن ناحية أخرى فإن وجودهن في البيت طوال اليوم كان سببا في خروج الزوجات من منازلهن كثيرًا طوال فترة النهار دون تذمر من الزوج طالما كانت الجارية تقوم بالأعمال المنزلية وترعى الصغار، إلى جانب تلبية مطالب الزوج[٥٦٧]، كما أثر وجود الجواري في زينة المرأة

([٥٦٣]) نفسه، ج٩، ص ١٢٢ – ١٢٤.

([٥٦٤]) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٤، ص ٤١.

([٥٦٥]) نفسه، ج١، ص٩٩ – ١٠٠.

([٥٦٦]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٦٣.

([٥٦٧]) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٣٩.

وجمالها حيث اعتنت النساء بزينتهن وتفرغت لذلك، حيث وصف لنا أحد المؤرخين المعاصرين ما كانت ترتديه المرأة المصرية من طرحة على رأسها بلغ ثمن الواحدة منها عشرة آلاف دينار، وصور لنا ما كن يتحلين به من خلاخيل ذهبية وأطواق مرصعة بالجواهر وثياب واسعة الأكمام [٥٦٨].

بالإضافة إلى أن هؤلاء الجواري قد ارتكبن جرائم عظيمة استحقت العقاب الشديد مثل الضرب أو الغرق أو الشنق وذلك أنه عندما يتزوج السيد من جاريته إلى جانب زوجته الحرة فقد تحتم عليه أن يعتقها قبل العقد عليها، ولذا فإن زوجته الثانية قد تشعر بالغيرة من زوجته الأولى مما يجعلها ترتكب أعمالا شنيعة للفوز بالزوج أو للحصول على الأموال، ففي عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م شنقت جارية رومية خارج باب النصر لأنها اتفقت مع عدة جواري على قتل سيدتها وأقمن لها العزاء وفى اليوم التالي لوفاتها تنافسن حول اقتسام المال الذي سرقنهن من سيدتهن، فانتشر الخبر واعترفن على الجارية التي فعلت تلك الجريمة وتم شنقها[٥٦٩].

وفى عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م وضعت جارية من جواري الظاهر برقوق السم في طعام زوجة السلطان، واتهمت الجارية وضربت ضربا مبرحا حتى أقرت على رجل نصراني كان يعمل في ديوان السلطان بأنه قام بمساعدتها، ولذا فإنه عوقب بالضرب ولم يقر بشيء ومات الاثنان في السجن[٥٧٠]، كما تطالعنا مصادر أخرى عن وجود جواري أخريات عمدت إلى قتل سيدتها حتى يخلو لها وجه سيدها[٥٧١]، ففي سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م عمدت جارية على قتل ابن سيدتها وذلك بإغراقه في الخليج الناصري انتقاما منها وحقدا عليها، فأمر القاضي بإغراقها في نفس المكان الذي أغرقت فيه الطفل الصغير[٥٧٢].

([٥٦٨]) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧٦؛ المقريزى، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٨١٠.

([٥٦٩]) المقريزى، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٧٩٩.

([٥٧٠]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٢٥؛ الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص ٦٩.

([٥٧١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٣٤؛ المقريزى، السلوك، ج٢ق٢، ص ٨٧٢؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٣٣.

([٥٧٢]) ابن إياس، نفسه، ج٢، ص ١٦٠.

وفى عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م اتفقت جارية بيضاء مع غلام على قتل سيدها وسرقة أمواله وهروبهما معًا، وبالفعل قتلاه ودفناه في الإسطبل، وعندما انكشف أمرهما أمر السلطان بشنقهما معًا[٥٧٣]، وكذلك ما حدث في سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م حيث أمر السلطان الأشرف قايتباي بشنق جارية جركسية قد حملت من أحد مماليكه في طريق الحجاز فلما وضعت مولودها قتلته خوفا من الفضيحة، أما المملوك فقد حكم عليه السلطان إما بالغرق أو بالنفي إلى بلاد الشام[٥٧٤]، وأيضا في عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م أمر السلطان الغوري بالتشهير بإحدى الجواري ثم قتلها وذلك لأنها قتلت سيدتها وابنها وأخو سيدتها[٥٧٥]، كما حدث عام ٩١٦هـ/١٥١٠م حينما أمر السلطان بشنق ثلاث جواري وغلام قتلوا سيدتهم أم الأمير كسباى الداوادر على باب المنزل، وتم تنفيذ الحكم عليهم في نفس المكان الذي قتلوها فيه[٥٧٦].

ومن الأمور الطريفة عند عقاب الجواري أن الضرب كان لا يزيد عن خمسمائة عصاه[٥٧٧]، كما كان المنصور أمير حاج بن الأشرف شعبان يضرب جواريه كثيرا وكلما سمع الظاهر برقوق صياحهن أرسل له من يشفع فيهن فيطلق سراحهن، ولكنه قام بحيلة ماكرة لتحقيق هدفه حيث إذا ضرب إحدى الجواري جعل المغاني تدق الدفوف، فإذا صاحت الجارية لا يسمعها أحد، ولكن حريم السلطان برقوق قد علمن بهذه الحيلة وأبلغوا الظاهر برقوق، فكان كلما سمع صوت الموسيقى عرف أن هناك جارية تصرخ وتصيح فيرسل إليه ليشفع فيها[٥٧٨]، ونتيجة لقسوته وشدته مع جواريه فقد وضعن له شيئا في الشراب شلت يداه لسنوات عديدة حتى وفاته[٥٧٩].

---

(٥٧٣) نفسه، ج٣، ص ٧٠.
(٥٧٤) نفسه، ج٤، ص ٣٥٠.
(٥٧٥) نفسه، ج٤، ص ٩٦.
(٥٧٦) نفسه، ج٤، ص ٢٠٢.
(٥٧٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٣٨٠.
(٥٧٨) نفسه، ص ٣٨٠ – ٣٨١.
(٥٧٩) الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص ٢٩٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص ٨٧؛ الشوكانى، البدر الطالع، ج١، ص ١٣٠.

يضاف إلى ذلك دورهن في تفشى بعض الأمراض الاجتماعية، فمن المعتقد أن وجود أعداد كبيرة من الجواري المسيحيات من الفرنج والأرمن بوجه خاص كان له الأثر في رواج الأمراض الاجتماعية في ذلك العصر، ففي عام ٦٦١هـ/١٢٦١م أيام الظاهر بيبرس "الذي أمر بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجييات والخواطى جمع خاطية وهى المرأة الداعرة وتسمى أيضا محظية "[٥٨٠]، وكذلك ما يرويه لنا أبن أيبك الداوادار في حوادث عام ٧١٦هـ/١٣١٦م، حيث أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مراسيم بإبطال ما كان يحدث في دار الزعيم من فواحش ومفاسد وذلك لأن هذه الدار كان بها ناس يفسدون الجواري والعبيد ويساعدوهن على الهرب من منازل أسيادهن ويأتون بهن إلى تلك الدار بظاهر باب زويلة فيعطون خمسين درهما حتى يعيدوه إليهم [٥٨١]، وبهذا قد عشن في قصور السلاطين والأمراء والعامة وأصبحن جزءا لا يتجزأ من الحياة العائلية في المجتمع المصري.

([٥٨٠]) المقريزى، السلوك، ج١ ق٢، ص ٦٠٠.

([٥٨١]) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٢٩٠.

openkandil.com